www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ديناميكية القرآن الكريم
وجه من وجوه إعجازه

بقلم

أ.د. محمد رفعت أحمد زنجير

نشر في دار اقرأ، دمشق 1431هـ / 2010م

الاقتباس مسموح شرط الإشارة إلى المصدر الألوكة حصريا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

موجز البحث

الحمد لله الذي جعل كتابه معجزا إلى قيام الساعة، تحتار فيه عقول الحكماء، وتسكت عنده ألسنة البلغاء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبعد: فقد وفقني الله تعالى إلى دراسة خصيصة جديدة من هذا الكتاب المعجز، وهي أنه كتاب (ديناميكي) أي كتاب طاقة حركية فعالة منظمة تدفع بالتطور بكل اتجاه، ابتداء من النشاط العقلي والذهني وانتهاء بواقع الحياة، فهو ينافي الجمود والتخلف في جميع صورهما، ولو أراد الإنسان كتابا جامعا حافلا فيه شيء من كل شيء، وفيه كل شيء عن بعض الأشياء الهامة، ويكون نافعا للعقل وهاديا للفكر ومدفئا للقلب، يرى من خلاله الكون والحياة عبر كل الأزمنة، ومن خلال جميع الأمكنة، ويتعرف فيه على حياة البشر جماعات وأفرادا، وما في حياتهم من خير وشر واستقامة وعوج، ثم يعرف من خلاله أسرار اللسان العربي المبين، ويحلق مع معانيه في كل سماء، وتسير خواطره متدفقة في كل اتجاه، فليس أمامه سوى دستور الحياة الخالد، وهو الكتاب المتجدد في معانيه والثابت في محتواه.

وتكون هذا البحث: (ديناميكية القرآن وجه من وجوه إعجازه) من مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة.

في المقدمة، تحدثت عن أهمية الموضوع، وأنه وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

وفي المبحث الأول: ديناميكية البناء اللغوي، تتبعت الأساليب البلاغية التي تثير الانتباه وتحرك ذهن الإنسان، مثل: التشبيه والاستعارة، والاستفهام والاستثناء والنداء، وقد تتبعت ذلك في أربعة وأربعين أسلوبا من أساليب العربية.

وفي المبحث الثاني: ديناميكية الأداء الصوتي، وهو تنقله بين مقاطع مختلفة وأساليب متعددة من الأداء الصوتي، وتتبعت ذلك من خلال ثمانية موضوعات شملت الجناس وملحقاته والفواصل وتقسيماتها، ولزوم ما لا يلزم والإعلال والإبدال والإدغام.

وفي المبحث الثالث: ديناميكية البعد النفسي الداخلي، ونعني بها حركة القرآن في كيان الإنسان، وبينت أسباب ذلك وحللت سبعة أمثلة نماذج توضح الفكرة.

وفي المبحث الرابع: ديناميكية البعد الزماني، تناولت أحد عشر موضوعا، شملت: ما جاء ذكره من مفردات الزمان، وتحديد أوقات العبادات، وما جاء ذكره مصحوبا بالعدد، ودقة الوقت كما عبر عنها القرآن، وخصوصية بعض الأوقات، وما ورد بذكر اليوم الآخر، والتعبير بالماضي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن المستقبل، والتعبير عن المستقبل باسمي الفاعل والمفعول، والإخبار عن القرون الماضية، الإخبار عن المستقبل، ديناميكية الزمان.

وفي المبحث الخامس: ديناميكية البعد المكاني والحركة الكونية، تناولت الحديث عن ثمانية موضوعات شملت: ما جاء ذكره من الأجرام العلوية، والمذكور من البلاد والبقاع والأمكنة والجبال، وما تكرر ذكره من الأماكن، وما نسب في القرآن إلى الأماكن، و ما أقسم الله به من الأماكن، وما ورد فيه من أسماء الأماكن الأخروية، واستيعاب القرآن للبعد المكاني، وحركة المكان والزمان

وفي المبحث السادس: ديناميكية الحدث والحركة الاجتماعية، تناولت تسعة موضوعات شملت: سجل القرآن الكريم مواقف من الحياة الخاصة للنبي عليه الصلاة والسلام، ورصده أحداث الصراع بين النبي عليه السلام وكفار مكة، ورسم القرآن الكريم بناء دولة المدينة، وسجله الحوار التعليمي بين الرسول وأصحابه، وسجله الحوار الدعوي مع المشركين وأهل الكتاب، وسجله جوانب من الحياة الخاصة لبعض المؤمنين، و سجله الحياة الاجتماعية للمجتمع المسلم، وسجل الحياة الثقافية والعقدية والاجتماعية لكفار مكة والمدينة، وسجله الحياة الاجتماعية للأمم والشعوب التي أبيدت أو بقيت حتى نزول القرآن.

وفي المبحث السابع: ديناميكية التشريع الإسلامي، ذكرت أنه تشريع متدرج يلائم النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني، وتحدثت عن ذلك من خلال أربعة موضوعات شملت: الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبين، والمنطوق والمفهوم، والعام والخاص.

وفي الخاتمة أوجزت فيها البحث وأهم التوصيات

ومن الله أسأل التوفيق والقبول إنه جواد كريم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقدمة:

الحمد لله رب الأرباب، ومجري السحاب، وقاهر الأحزاب، والذي أكرم الناس بهذا الكتاب، فقال: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (إبراهيم:1)، وقد جعل كتابه خير ما أنزله من كتب السماء، قال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر:23).

ووصف كتابه بأنه يهدي إلى الرشد في أمور الدين والدنيا، فقال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) (الإسراء:9)، وجعل الفساد والهلاك النيوي والأخروي قرينا من أعرض عن كتابه، قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (طه:124). وبين أن هذا الكتاب شرف لمن يحمله ابتداء بالنبي عليه السلام ثم من تبعه من قومه، قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) (الزخرف:44)، وأشار سبحانه إلى سعة معانيه، فهي لا تنفد، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لقمان:27).

وبين عجز الخلق من إنس وجن أمام كتابه، فهو المعجزة الخالدة التي أنزلها من السماء، إذ لا يستطيع الخلق كلهم ولو تعاونوا أن يأتوا بمثله، قال تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الإسراء:88)، قهرهم فتحداهم أن يأتوا بمثله في مواضع كثيرة من كتابه فعجزوا، قال تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (القصص:49)، وقال أيضا: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) (الطور:34). ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، فقال عز وجل: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (هود:13)، ثم تحداهم بسورة واحدة، فعجزوا، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:23)، فبين عقب ذلك كله أن العجز سيلازمهم إلى يوم الدين، فما عليهم سوى أن ينقادوا لربهم طوعا من أنفسهم، لكي يسلموا من عذاب الخلد في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جهنم، قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:24).

والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد، الذي حث على تعلم القرآن وتعليمه، وجعلها أشرف رسالة في الحياة، فهو القائل: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[1]، وقد أبدع في وصف كلام ربه، فكان مما قال في وصفه: (هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه)[2]، وهذا هو الحق بعينه، فإن عجائب القرآن لا تنقضي، وإن وجوه جماله لا تنتهي، وإنه للعلماء كالماء الزلال للظامئ في الصحراء، وهو بحر العلم والفكر والجود والجمال والجلال والكمال والحكمة، يعطيك زيادة كلما طلبت منه معرفة، فما هو إلا كما قال الشاعر:[3]

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

أما بعد: فإن كتاب الله الخالد، هو سراج العلم والمعرفة، وبشير الفرج والأمل، وهو معجزة هذا النبي الأمي العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وهو باق إلى قيام الساعة من غير تبديل ولا تحريف يشهد على صدق النبوة، قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9)، وقد اجتهد العلماء من السلف والخلف لمعرفة وجوه إعجازه، وكثرت في ذلك المذاهب والأقوال، ووضعت الكتب والتصانيف، فكان هنالك رصيد ضخم، وكتر هائل من المعرفة، منها ما هو مكرر منقول عن السلف، ومنها ما هو جديد معتبر، والقرآن هو القرآن، يعطي للجميع من فيضه عبر القرون الطويلة رحيق الحياة، فلا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي وجوه إعجازه.

ولما كثرت الأقوال والجهود في هذا الباب، أحببت أن أدلي بدلوي في هذا الباب، بعد أن كتبت فيه من قبل بحوثا لاقت قبولا والحمد لله، وإن ميدان التجديد في معرفة وجوه الإعجاز لهو بحر زاخر، يستطيع المرء في كل زمان ومكان إذا أوتي آلات علم التفسير واللغة،

---

[1] – رواه البخاري عن عثمان رضي الله عنه، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي، بتحقيق الألباني، (651/1) المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، بيروت.

[2] – من حديث رواه الترمذي والدارمي عن علي، رضي الله عنه وقال الترمذي: إسناده مجهول، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي، بتحقيق الألباني، (659/1-660).

[3] – البيت لأبي نواس، انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للعباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (78/1)، عالم الكتب، بيروت..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكانت لديه معرفة وإلمام ببقية العلوم، ورزقه الله الموهبة والصبر، يستطيع أن يأتي بالجديد النافع بإذن الله تعالى.

وقد وفقني الله إلى التأمل في خصيصة جديدة من هذا الكتاب، وهي أنه كتاب (ديناميكي) أي كتاب حركة فعالة منظمة تدفع بالتطور بكل اتجاه، ابتداء من النشاط العقلي والذهني وانتهاء بواقع الحياة، فهو ينافي الجمود والتخلف في جميع صورهما كما أثبت في بحث مسبق بهذا الخصوص، ولو أراد الإنسان كتابا جامعا حافلا فيه شيء من كل شيء، وفيه كل شيء عن بعض الأمور الهامة، ويكون نافعا للعقل وهاديا للفكر ومدفئا للقلب، يرى من خلاله الكون والحياة عبر كل الأزمنة، ومن خلال جميع الأمكنة، ويتعرف فيه على حياة البشر جماعات وأفرادا، وما في حياتهم من خير وشر واستقامة وعوج، ثم يعرف من خلاله أسرار اللسان العربي المبين، ويحلق مع معانيه في كل سماء، وتسير خواطره متدفقة في كل اتجاه، كتاب يوقظ العقل والأمم، ويحرك طاقات الفرد والجماعة، ويدفع بالكون والإنسان تجاه الخير والأفق الأعلى، ويميط اللثام عن كامن المعاني، وينتفع به حتى من لا يعرف لغته، فليس أمامه سوى دستور الحياة الخالد، وهو الكتاب المتجدد في معانيه والثابت في محتواه في كل زمان ومكان، ألا وهو القرآن الكريم.

إنه كتاب طاقة وحركة، يدفع نحو الخير دائما وأبدا، ويرفض التبلد والجمود والكسل، قام بناؤه اللغوي، وموضوعاته التي طرقها على هذا المنهج، وهو منهج الديناميكية، أي الطاقة التي لا تتوقف أبدا، ولا يتوقف من يتلقاها حتى يكون منتهاه الجنة.. ومما يثبت أن القرآن كتاب حركة ديناميكية موارة لا تهدأ، أن الله قد وصف كتابه بصفات الإنسان، ومن صفات الإنسان أن يتحرك، قال تعالى: (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت:42)، وجعل النقلة إلى الإيمان نقلة إلى الحياة، قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:122). والكافرون هم موتى لأن حواسهم قد تعطلت، قال تعالى: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) (البقرة:18)، وأنه لو كان لكتاب أن يخرق نواميس الكون، ويحرك الجمادات ويكلم الموتى لكان هذا القرآن، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً)(الرعد: من الآية31).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولأن القرآن كتاب حركة، فلا ينبغي أن ينام حامله عنه الليل كله، بل لا بد أن يوقظ فيه الهمة والحركة ليناجي الله به وقد نامت العيون، قال تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) (الإسراء:79)، وكذلك ينبغي لحامله، أن يصدع به، ويحرك من خلاله جمود الحياة التي استقرت على الشرك (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الحجر:94)، فهو كتاب ينبغي توصيله إلى الناس، لأن غرضه أن يصل إلى آذان الناس وقلوبهم من خلال وصوله إلى قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة:67).

مستويات الطاقة الحركية (الديناميكية) القرآنية:

والحركة فيه تتجلى في مستويات كثيرة، أهمها سبعة، هي:

الأول: ديناميكية البناء اللغوي، ونقصد بها استخدامه لأساليب تثير الحركة والانتباه في ذهن الإنسان، مثل: الاستفهام والاستثناء والنداء، وكذلك استخدامه لتعابير مختلفة وتكراره لبعض التعابير في الموضوع الواحد بصيغ مختلفة، وموضوع المشترك والمترادف والمبهم ونحو ذلك، فقد كان القرآن حافلا باستغلال طاقات اللغة، ليبني من خلالها الإعجاز، كما كان قادرا على تكييف اللغة وفقا لأغراضه، وليس ذلك بوسع بشر، وإنما تحقق له ذلك لأنه كلام العزيز الحميد.

الثاني: ديناميكية الأداء الصوتي، وهو تنقله بين مقاطع مختلفة وأساليب متعددة من الأداء الصوتي، مما يثير الشجن أو الأمل أو الفرح لدى سامعه ولو لم يكن يعرف العربية.

الثالث: ديناميكية البعد النفسي الداخلي، ونعني بها حركة القرآن في كيان الإنسان، أي حركته بين العقل والعاطفة، وما يثيره من كوامن الفكر والخيال والإبداع.

الرابع: ديناميكية البعد الزماني، ونعني بها حركته بين الأزمنة الثلاثة (الماضي، الحاضر، المستقبل)، مما يثير الشعور بوحدة الزمان، فكأن المرء يعيش كل الأزمنة في وقت واحد.

الخامس: ديناميكية البعد المكاني والحركة الكونية، ونعني بها تنقله في الحديث بين أماكن متباعدة في وقت واحد، مما يحرك ذهن الإنسان نحو شتى بقاع المعمورة، وأجرام الكون وعالم الغيب كالجنة والنار، فكأنه موجود في كل مكان.

السادس: ديناميكية الحدث والحركة الاجتماعية، وهي تحركه في حياة الناس بأبعادها لمختلفة، فكأنه يمشي معهم ويساكنهم في بيوتهم. ويلازم واقعهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السابع: ديناميكية التشريع الإسلامي، فهو تشريع متدرج يلائم النفس الإنسانية من جهة، والمنهج االتربوي الذي يأخذ الناس بالقدوة والترغيب والترهيب إلى الصراط المستقيم.

ونحن نجزم أن هذه المستويات السبعة من الديناميكية القرآنية لم تجتمع لكتاب غير القرآن، وأن الأدباء والشعراء والبلغاء وجميع الناطقين والعقلاء في كل زمان ومكان هم غفل عن مجموعها، قد يحومون حول بعضها، وقد يدرسون شيئا منها، وقد يوجد أجزاء وتفاريق منها في كلامهم، ولكنها ليست موجودة جملة واحدة على وجه معجز إلا في القرآن الكريم، لذا فهم لا يستطيعون أن يلامسوا ديناميكية القرآن في شيء منها، لأنهم أعجز وأضعف، وأقل وأدنى من أن يفعلوا ذلك، وبسبب هذه الديناميكية حرك القرآن أبناء العرب، وأوجد من رعاة الغنم رعاة للأمم، ونقل العرب هذه النقلة البعيدة من الضلال إلى الهدى، ومن الشرك إلى التوحيد، وكيف لا يفعل ذلك وقد أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض؟!

إنه لوجه جديد من وجوه الإعجاز لم يلتفت إليه أحد، اللهم إلا شذرات قد تجدها في تراث أهل العلم، وآمل أن يكون الله عز وجل قد فتح علي به، فرزقني به ما لم يرزق به باحثا قبلي، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي، وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

وهذه المستويات السبعة ستكون موضوع بحثنا في سبعة مباحث مذيلة بخاتمة.

ملاحظة لا بد منها

يبقى أن أشير إلى أن وصف القرآن بأنه كتاب ديناميكي (dynamic) تعني أنه كتاب قوة وطاقة طبيعية ونشاط[4]، ولقد آثرت استخدام المصطلح العلمي تأثرا بواقع الحياة، فقد بدأت حياتي الجامعية في كلية الهندسة، قبل أن أتحول منها إلى كلية اللغة العربية حبا بالقرآن الكريم وبحثا عن وجوه إعجازه والجمال فيه، وقد آثرت أن تكون هذه الكلمة في العنوان لما لها من دلالة علمية عند غير المتخصصين، ولا نعني هنا بالديناميكية والحركة إلا طاقة التعبير والدفع والأداء القرآني، دون أية دلالة أخرى، فالبحث يأتي في إطارالتنظير العلمي لإعجاز القرآن لا غير.

وفي الختام أبتهل إلى الله أن يجعل ما أكتبه نافعا لغيري ونورا في قبري، وأن يغفر لي يوم الدين، وأختم بهذا الدعاء المأثور: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين)(البقرة: من الآية286).

---

[4] - انظر: المورد لمنير البعلبكي، ص (299)، دار العلم للملايين، بيروت، 1988م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والحمد لله رب العالمين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الأول:

ديناميكية البناء اللغوي

البناء اللغوي للقرآن هو قاعدة الإعجاز الأساسية فيه، فلقد كانت اللغة بين يدي القرآن الكريم مطواعة لأغراضه ومقاصده، يشكلها كما يريد، ويوظفها كما يشاء، يختار من مفرداتها أخفها وأيسرها وأعذبها، ويصنع منها نظما غريب المنوال، ليس له في اللغة سابق مثال، وهذا النظم البديع قادر على أن يزلزل الجبال، وأن يهز الكون كله، والأهم من هذا كله أنه يهز الإنسان من داخله، ويخلقه خلقا جديدا، وذلك لما فيه من الديناميكية والطاقة.

ولقد تكلم أهل العلم عن أساليب القرآن وبديعه ونظمه، وسوف نستعرض بعض ما قيل في هذا الصدد، ولكن ما يعنينا هنا في هذه الأساليب: الديناميكية، ونقصد بها استخدامه لأساليب تثير الحركة والانتباه في ذهن الإنسان، مثل: الاستفهام والاستثناء والنداء، وكذلك استخدامه لتعابير مختلفة وتكراره لبعض التعابير في الموضوع الواحد بصيغ مختلفة، وموضوع المشترك والمترادف والمبهم ونحو ذلك، وذلك كله مما ذكره العلماء في بحوثهم عن القرآن، ولكنهم لم يلتفتوا إلى موضوع الديناميكية في هذه الأساليب، وأثرها في وعي الإنسان. ونبدأ بأول هذه الأساليب وهو التشبيه.

أولا: التشبيه، وهو: (الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى)[5]، وهو كثير في القرآن كما هو الحال في اللغة أيضا، وتشبيهات القرآن جميعها سواء كانت مفردة أو مركبة، تمثيلية أو غير تمثيلية تدفع بالفكر في آفاق عليا، وتحرك الخيال في اتجاهات متعددة وعوالم مختلفة، خذ مثلا قوله تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) (القارعة:4) وتأمل كيف ربط في هذا التشبيه بين حركة الناس وما يصحبها من تدافع وتصادم وهول واقتحام بحركة الفراش المتطاير المتدافع المقتحم، فقد تحدث عن المستقبل كما لو كان حاضرا، وربط بين الدنيا والآخرة في آية واحدة، ثم أعقبها بقوله: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (القارعة:5)، والعهن هو الصوف والمنفوش: الذي شرع في الذهاب والتمزق، فانظر إلى ثبات الجبال وقوتها كيف صار هباء، ففي آيتين اثنتين تبين ما تؤول إليه صورة العالم من التبدل والمغايرة يوم القيامة، وذلك من خلال التشبيه الذي يثري الخيال تدفقا وحيوية وإثارة. ولنتأمل من التشبيه المركب قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ

---

[5]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (238)، دار الفكر العربي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:261) فانظر إلى صورة الإنفاق (ينفقون) استحضارا للحالة الراهنة وتحريضا على البذل، ومقارنته مع صورة متأنقة بديعة من متحف الطبيعة، تبدأ بحبة أنبتت وصيغة الماضي مقصودة هنا، وكأن الثواب أسبق من العمل، وذلك دفعا لما يتوهمه الكافرون من أن الإنفاق هدر للمال، فما هو في الحقيقة إلا نماء وزيادة، هذه الحبة نمت وأعطت سبعة سنابل، في كل سنبلة مئة حبة!! ويأتي بعد ذلك الكرم الإلهي الممدود: (والله يضاعف لمن يشاء)، هكذا ينقلك القرآن في رحلة عجيبة بين الإنفاق الذي هو في حقيقته زرع للحياة بالمحبة والتواصل والتكافل، وزرع للآخرة أيضا، يحصده المرء هناك، وبين نتيجة هذا الزرع وما يعقبه من نماء دنيوي وأخروي متمثلة بصورة هذه الحبة النموذجية المعطاءة، وبين الصورتين يتحرك فكر المؤمن بحركة ديناميكية تجمع بين الدنيا والآخرة والزرع والحصاد.

ومن التشبيه المركب أيضا قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الجمعة:5)، وهي صورة دقيقة مفعمة بالحركة لأولئك الذين حملوا وهنا استخدم صورة الماضي ثم أعقبها بصورة المضارع (كمثل الحمار يحمل) استحضارا للذهن وتشخيصا للصورة أمام الناظرين، وماذا حمل هؤلاء؟ لقد حملوا التوراة التي هي نور الله، بيد أنهم رفضوا الحمل، وناءوا به، فتلاعبوا كي يتخلصوا منه، فمثل هؤلاء كالحمار الذي يحمل أسفار لا ينتفع بها، ولا ينال منها إلا مؤونة الثقل، ووجه الشبه عقلي، وهو: (حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه)[6]، فانظر كيف نقلك التشبيه بين أمور متعددة أعطت الفكر صورة حية نابضة لحقيقة بني إسرائيل الذين لم يستفيدوا من مصاحبة كتاب ربهم شيئا سوى العناء والمقت الإلهي. لنتأمل أيضا قوله تعالى في صفة شجرة الزقوم: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) (الصافات:65)، وهو من التشبيه الوهمي عند البلاغيين، كيف ربط القرآن من خلال التشبيه بين الطلع وبين رؤوس الشياطين وبين الزقوم في ديناميكية عجيبة جمعت بين الدنيا والآخرة والغواية وسببها ونتيجتها، فرؤوس الشياطين هي التي ضللت الكافرين وساقتهم إلى هذا الغذاء الذميم، في عملية مدارها كله على القبح، فرأس الشيطان قبيح، والضلال قبيح، وعقابه قبيح، وشجرة الزقوم قبيحة، والأكل من هذه الشجرة قبيح.. وهكذا نجد أن التشبيه أداة من أدوات الديناميكية التي استفاد القرآن من طاقتها التعبيرية في بيان أغراضه.

---

[6]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (260).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثانيا: الاستعارة وهي إحدى وسائل التعبير الديناميكية، وهي عند البلاغيين: (اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي، لعلاقة المشابهة)[7]، وقد وردت في آيات كثيرة، منها: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة:6) أي: (الدين الحق)[8]، فانظر إلى حيوية الأسلوب القرآني كيف جعل الدين الحق الموصل إلى الله صراطا مستقيما، والمستقيم كما هو معلوم في الهندسة أقرب مسافة بين نقطتين، فأقرب الطرق إلى الله هو هذا الدين القويم. ووردت الاستعارة في قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:257). فانظر كيف جعل الكفر على تعدد مناهجه وصوره ظلمات، وكيف جعل الهدى نورا، وكيف جعل النقلة من الكفر إلى الإيمان نقلة من الظلمات إلى النور، والنقلة من الإيمان إلى الكفر نقلة من النور إلى الظلمات، وتأمل البون الشاسع بين النقلتين من خلال استعارة موحية فعالة مؤثرة وهي استعارة النور للتوحيد والظلمات للشرك. ومن ألوان الاستعارة قوله تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل:112). تأمل في تعبير (أذاقها) وما فيه من الاتحاد والاندماج، فالإنسان عندما يذوق شيئا ويبتلعه، يصبح جزءا لا يتجزأ منه، فالعذاب متغلغل في كيان القرية كله تغلغل الغذاء في جسم الإنسان، فلا يمكن أن ينفصم عنه. ثم تأمل الاستعارة الموحية الموحية: (لباس الجوع والخوف) وما في اللباس من الستر والغطاء للجسم، وكأن الجوع والخوف فصل لباسا لتلك القرية، فلا تستطيع أن تنفك عنه، إنه تعبير موحي للمصاحبة والملازمة الدائمة التي تعبر عن انهماك تلك القرية في ألوان من العذاب الحسي الغليظ. كما عبر القرآن عن حياة الشرك بالموت، وعن الإيمان بالحياة، قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:122)، فالنقلة إلى الدين الحق هي نقلة من الموت إلى الحياة. وفي صورة أخرى يعبر القرآن عن عملية تمكن الضلال في نفوس المنافقين وتمسكهم به ونبذهم للهدى بعملية الشراء، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (البقرة:16) وتصوير أخذ الضلالة ونبذ الهدى بالبيع والشراء

---

[7]- المصدر السابق، ص (295).

[8]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (408/2)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403هـ/1983م..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دليل على صفقة خاسرة في عملية تجارية فاسدة ولذلك قال: (فما ربحت تجارتهم)، ومقابل هذه التجارة هنالك تجارة أخرى رابحة وهي تجارة المؤمنين، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الصف:10) وهنا يتجلى جمال التعبير القرآني الذي جعل عملية الإيمان والكفر كعملية البيع والشراء، تشبيها للمعقول بالمحسوس، وتقريبا للمجرد إلى الأذهان بعبارات موحية فعالة من خلال الاستعارة.

ثالثا: المجاز المرسل، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، يعرفه البلاغيون بأنه: (ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه)[9]، ومنه إطلاق المسبب وإيراد السبب كما في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) (غافر:13)، فالرزق هنا المراد به الغيث الذي يكون به الرزق، وعبر بالرزق عن الغيث لأنه مسبب عنه، وهكذا يربط بين الغيث والرزق في مخيلة الإنسان، ومن المجاز المرسل تسمية الشيء باعتبار ما سيؤول إليه، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) (النساء:10)، فالمراد بقوله (إنما يأكلون في بطونهم نارا)

مالا سيكون نارا يوم القيامة، وقد سماه نارا حتى يجعل النفس تنفر منه وتبتعد عن أكله وكأنه نار حقيقية يلتهمها عبيد المال سفها وطغيانا. ومن المجاز المرسل تسمية الشيء باعتبار ما كان عليه، كما في قوله تعالى: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً) (النساء:2)، فاليتيم عندما يعطى المال وقد بلغ سنة التكليف لم يعد يتيما، وإنما سماه يتيما باعتبار ما كان عليه ليحافظ على نزعة الرحمة عناية به. ومن علاقات المجاز المرسل: إطلاق المحل وإرادة الحال فيه، كما في قوله تعالى: (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) (العلق:17)، فالمراد دعوة أهل النادي، ولكنه طلب منه دعوة النادي بما فيه زيادة في التحدي والمبالغة. ومن علاقات المجاز المرسل: تسمية الشيء باسم آلته، كما في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (إبراهيم:4). فاللسان هنا المراد به اللغة، وأطلق لفظ اللسان دون اللغة لأنه أداتها وآلتها. وهكذا نجد أن المجاز المرسل يولد طاقة فكرية هائلة في الكلام مستندا إلى ما بين المعاني من علاقات لا شتى لا تقوم على المشابهة كما هو الحال في الاستعارة.

---

[9]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (397/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رابعا: المجاز العقلي، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، يعرفه البلاغيون بأنه: (إسناد الفعل، أو معناه، إلى ملابس له، غير ما هو له، بتأول)[10]، ومنه قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (القصص:4)، فإسناد الذبح والاستحياء إلى فرعون لأنه السبب الآمر بهذه الأفعال الشنيعة التي يقوم بها جنوده، وقد يكون الإسناد إلى الزمان، كما في قوله تعالى: (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) (المزمل:17)، والأحداث التي في ذلك اليوم هي التي تجعل الولدان شيبا وليس اليوم في حد ذاته، كما يكون الإسناد إلى المكان، كما في قوله تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) (الزلزلة:2)، والأرض لا تفعل ذلك من تلقاء نفسها وإنما يأمرها الله بذلك، وقيمة هذا المجاز أنه يلفت الإنسان إلى العوامل المؤثرة في الأفعال من أسباب وزمان ومكان وغير ذلك إلى جانب الفاعل الحقيقي للحدث.

خامسا: الكناية، وهي إحدى أدوات التعبير الديناميكية، يعرفها البلاغيون بأنها: (لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادته) [11]، وقد وردت الكناية في مواضع من القرآن، قال تعالى: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (المائدة:75) فقوله كانا يأكلان الطعام كناية على أنهما من البشر، وأنهما (كسائر أفراد البشر في الاحتياج إلى ما يحتاج إليه كل فرد من أفراده بل من أفراد الحيوان) [12]، وقوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:223) هو (من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم)[13]، وعليه فالكناية أسلوب غير مباشر لأداء المعنى مع قرينة ودليل ملموس، وقد وظفها القرآن لتفعيل التعبير اللغوي، والرقي بأدائه إلى رتبة الإعجاز.

---

[10]- المصدر السابق، (98/1).

[11]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (336).

[12]- إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، (68/3) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[13]- الكشاف للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (266/1)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ/ 1986م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سادسا: الأمر، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، وأكثر ما يكون جماله لما يخرج عن مقتضى الظاهر، كالتهديد في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (فصلت:40)، أو التعجيز كما في قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:23)، أو الإهانة كما في قوله تعالى: (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً) (الإسراء:50)، أو التسوية كما في قوله تعالى: (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ) (التوبة:53)، أو الاحتقار كما في قوله تعالى: (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) (الشعراء:43).. فصيغ الأمر كلها في هذه الآيات ونحوها ذات معان دالة، تتجاوز المعنى المباشر للأمر وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام إلى معان أخرى بلاغية تستشف من إيحاءات الكلام وسياقاته المختلفة.

سابعا: النهي، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، وهو في الأصل: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ولكنه قد يخرج إلى معان أخرى بلاغية تستشف من إيحاءات الكلام وسياقاته المختلفة، وذلك كالدعاء كما في قوله تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة:286)، فقد حملت دلالات النهي في الآية السابقة معاني الدعاء للعلي الكبير أن يتولى المؤمن برعايته وحفظه ونصره، فخرجت بذلك عن مطلق النهي وأعطت الكلام دفئا وحيوية في محراب التبتل إلى الله العلي الكبير.

ثامنا: الاستفهام، وهو في الأصل طلب المتكلم العلم بشيء لم يكن معلوما له من قبل، ولكن القرآن قد يتجاوز هذا الغرض إلى أغراض بلاغية أخرى، كالتشويق كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الصف:10)، أو التسوية كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (البقرة:6)، أو التعجب كما في قوله تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (هود:72) أو التقرير، كما في قوله تعالى: (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم) (الأنبياء:62)، أو الإنكار، كما في قوله تعالى: (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)(الأعراف: من الآية80) فالاستفهام في هذه الآيات خرج عن غرضه الأصلي إلى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معان أخرى ذات إيحاءات بلاغية جديدة، تشحذ الفكر وتوقظ الخيال للبحث وراء المعاني الجديدة.

تاسعا: التمني، وهو طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجى حصوله، إما لكونه مستحيلا أو بعيد الحصول، كما في قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الأنعام:27)، فالعودة إلى الدنيا مستحيلة، وهنا يتحرك خيال الإنسان بين الآخرة والدنيا، ويقف متحسرا إذا كان مقصرا، ويدرك أن ثمة فرصة ما زالت أمام عينيه، فيسرع ويبادر إذا كان من أهل السعادة، وأما بعيدالحصول فكما في قوله تعالى: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (القصص:79)، فها هنا يرسم أسلوب التمني صورة لأولئك السذج من العوام الذين يخدعهم بريق الذهب، فيمنونه ولو كان على حساب كل شيء! وأسلوب التمني هو من الأساليب الحيوية التي تثير الانتباه، وتحرك العقل، وقد وظفه القرآن لغرض بث الطاقة التعبيرية الخلاقة في بيانه العظيم.

عاشرا: النداء، وهو طلب إقبال المخاطب على المتكلم، وهو كثير في القرآن الكريم، فمنه ما هو موجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم مخاطبا بوصف النبوة، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (لأنفال:64)، وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) (لأنفال:65)، وقد يخاطب بوصف الرسالة، وذلك كما في قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)(المائدة: من الآية41)، (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)(المائدة: من الآية67)، ومنه ما هو خطاب للثقلين، كما في قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (الرحمن:33)، ومنه ما هو خاص بالمؤمنين، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)(التحريم: من الآية8)، ومنه ما هو خاص بالكافرين كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التحريم:7)، ومنه ما هو خاص بالمنافقين كما في قوله تعالى: (لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) (التوبة:66)، وقد يخرج النداء عن غرضه الأصلي لأغراض أخرى كالتحسر في قوله تعالى: (يَا حَسْرَةً عَلَى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (يّـــس:30)، وبالجملة فإن أساليب النداء من الأساليب الحيوية التي تبث النشاط في نفس المخاطب، وتجعله يلقي السمع وهو شهيد.

أحد عشر:الأسلوب الحكيم، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، يعرفه البلاغيون بأنـــه: (وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيها على أنـــه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها على أنه الأولى بحالـــه، أو المهم له)[14]، كما في قوله تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَج)(البقـــرة: من الآية189)، سألوا عن تكوين الأهلة فوجههم إلى السؤال على ما هو أولى بهم أن يسألوه وهو فائدة تلك الأهلة، ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى: (يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِـــهِ عَلِيمٌ) (البقرة:215)، فقد سألوا عن مادة الإنفاق فأجابهم عن مواضع الإنفـــاق، متضـــمنا الإشارة إلى مادته وهو ان يكون من خير، والأسلوب الحكيم أسلوب تربوي فعـــال، يوجـــه السائل إلى ما هو أولى بحاله أن يسأله، ويرتفع به عن سذاجة ما طرحه من سؤال إلى أفق أعلى حين يجيبه على ما هو أولى له بالسؤال عنه.

اثنا عشر: الالتفات، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، يعرفه البلاغيون بأنه: (التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة ـــ التكلم والخطاب والغيبة ـــ بعد التعبير عنه بطريق آخر منها)[15]، ومثاله قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَـــى الْمَسْـــجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء:1)، فالانتقال مـــن الغائب إلى المتكلم فالغائب فيه طاقة تعبيرية معجزة، لأن هذا الأسلوب يدفع الرتابة عن الكلام ويجعل المتلقي يتأمل في الخطاب الرباني بكل حواسه، ويتابعه كلمة كلمة وحرفا حرفا.

ثلاثة عشر:الإيجاز، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، يعرفه البلاغيون بأنـــه: (اختصـــار بعض ألفاظ المعاني ليأتي الكلام وجيزا من غير حذف لبعض الاسم، ولا عدول عن لفظ المعنى الذي وضع له)[16]، والعرب مولعون بالإيجاز حتى قالوا: البلاغة هي الإيجاز، وكتاب الله عـــز وجل في ما عرضه من موضوعات وقصص وتشريع وعقيدة، لهو في غاية الإيجـــاز، متضـــمن

---

[14]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (162/1).

[15]- المصدر السابق، (157/1).

[16]- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حفني شرف، ص (459)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1382هـــ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سعادة الدارين، ودستور للفرد والجماعة على حد سواء، ومن أساليب الإيجاز قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)(البقرة: من الآية179)، وهذه الآية تشتمل على إيجاز القصر، وقد قال عنه السيوطي: (معناه كثير، ولفظه يسير، لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتل قُتل به كان ذلك داعيا إلى أن لا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم، وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ماكان عند العرب في هذا المعنى، وهو قولهم: القتل أنفى للقتل ــ بعشرين وجها أو أكثر) [17]، وصور الإيجاز كثيرة، وهو ضربان: إيجاز بالحذف وإيجاز قصر، وقد احتوى القرآن على النوعين، وليس بخاف ما يثيره الإيجاز من كوامن البحث والتنقيب على المعنى الذي يحتويه، فهو يبعث الطاقة في نفس القارئ أو المتلقي من أجل الإحاطة بالمعنى الذي قد يكون دقيقا أو غامضا مما يحتاج معه إلى مزيد من البحث والتأمل.

أربعة عشر: التكرار، وهو إحدى أدوات التعبير الديناميكية، لأنه يدفع إلى التأمل في ما كرر، وسببه، وفائدته، ويعرفه البلاغيون بأنه:(أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد) [18]، ومثاله في القرآن قوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (القمر:17)، وحول حكمة تكرار هذه الآية يقول السيوطي: (قال الزمخشري: كرر ليجددوا عند سماع كل نبأ منها اتعاظا وتنبيها، وأن كلا من تلك الأنباء مستحق لاعتبار يختص به، وأن يتنبهوا كي لا يغلبهم السرور والغفلة) [19]، وصور التكرار كثيرة في الذكر الحكيم، (ومن ذلك تكرير القصص، كقصة آدم وموسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في كتابه في مئة وعشرين موضعا. وقال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين موضعا، وقصة موسى في تسعين آية. وقد ألف البدر بن جماعة كتابا سماه المقتنص في فوائد تكرير القصص، وذكر في فوائده: أن في كل موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة، وهذه عادة البلغاء) [20]

---

[17] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين (227/1)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م.

[18] – تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حفني شرف، ص (375).

[19] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين (260/1).

[20] – المصدر السابق، (263/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خمسة عشر: ذكر الخاص بعد العام، وذلك (للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه، تنزيلا للتغاير في الوصف نزلة التغاير في الذات) [21]، ومثاله قوله تعالى: (مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:98)، فقد دخل جبريل وميكال ضمن الملائكة دخولا أوليا ثم ذكرا على التفصيل بعد ذلك للعناية بشأنهما، وهذا يدفع العقل لمزيد من التأمل في شأن هذين الملكين الكريمين.

ستة عشر: الإيغال، وهو (ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى دونها) [22]، ومثاله قوله تعالى: (اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (يّس:21)، فتأمل كيف ختمت الآية بوصف الرسل بالهدى، مما يجعل السامع يغرى باتباعهم، فهو اتباع مجاني لا يكلف شيئا من جهة، ثم هو اتباع على طريق الهداية من جهة أخرى.

سبعة عشر: التذييل، وهو: (تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد) [23]، ومثاله قوله تعالى: (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) (سبأ:17)، فانظر كيف جعل إنزال العقاب بسبب الكفر، ثم جعله خاصا بالكفرة، وهذا التذييل له أهميته، لئلا يتوهم غير الكافر إذا عصى ربه أنه سيعاقب عقاب الكافر، فالعقاب الماحق لا يكون إلا للكافرين.

ثمانية عشر: الاحتراس، وهو: (أن يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه) [24]، ومثاله قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (المائدة:54)، قال الخطيب القزويني مبينا سرا قوله تعالى: (أعزة على الكافرين): (فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين، لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل: أعزة على الكافرين، علم أنها منهم تواضع لهم، ولذا عدي الذل بعلى لتضمينه معنى العطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع، ويجوز أن تكون التعدية بعلى لأن المعنى: أنهم مع شرفهم، وعلو طبقتهم، وفضلهم على المؤمنين، خافضون لهم أجنحتهم) [25]

---

[21]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (303/1).

[22]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (305/1).

[23]- المصدر السابق، (307/1).

[24]- المصدر السابق، (310/1).

[25]- المصدر السابق، (310/1-311).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تسعة عشر: التتميم، وهو (أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة) [26]، ومثاله قوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ)(البقرة: من الآية177)، فقوله على حبه فيه تتميم في غاية الحسن، فهو ينفق المال مع حبه له، أو هو ينفقه حبا لله، ومنه أيضا قوله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) (الإنسان:8) أي مع اشتهائه والحاجة إليه، وهنا يكون الإنفاق أعظم أجرا عند الله تعالى.

عشرون: الاعتراض، وهو (أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب، لنكتة) [27]، ومثاله قوله تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) (النحل:57)، فكلمة سبحانه تنزيه في غاية الحسن وقع بين كلامين متصلين، فأفاد معنى جديدا، ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان:14). فقوله عز وجل: (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) اعتراض في غاية الحسن للتنبيه على فضل الأم خاصة التي تعبت بالحمل والولادة والتربية، والتي تكون أكثر عرضة للعقوق من جهة الأبناء إذا كبروا.

واحد وعشرون: وضع المضمر موضع المظهر، وذلك (ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه، فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرا لعقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن، وهو السر في تقديم ضمير الشأن أو القصة) [28]، ومثاله قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (الإخلاص:1)، فضمير هو جعل الذهن يتنبه لما يأتي بعده، فجاء لفظ الجلالة فأنست النفس بذكره وعلمت أنه المراد بعد الضمير، فتمكن في النفس غاية التمكن.

اثنتان وعشرون: المطابقة، وهي: (الجمع بين متضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة) [29]، ومثالها قوله تعالى: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ)(الكهف: من الآية18)، فقد طابق بين الأيقاظ والرقود، ومنها قوله أيضا: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي

---

[26]- المصدر السابق، (313/1).

[27]- المصدر السابق، (314/1).

[28]- المصدر السابق، (154/1).

[29]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (348).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)(الأنعام: من الآية122)، فقد طابق بين الميت وهو اسم والإحياء له وهو فعل، كما طابق بين النور والظلمات، والمطابقة كثيرة في كتاب الله وبخاصة بين السماء والأرض والجنة والنار والحق والباطل والهدى والضلال.. وهي بالإضافة إلى جمالها الأسلوبي ذات قيمة معنوية، لأنها تجعل الفكر يتأمل بين الأشياء وما يضادها سواء على صعيد المحسوسات أو المجردات، مما يتيح للعقل البشري أن يلم بالمعرفة من جميع أطرها وأشكالها في ما يتعلق بالأمر ونقيضه.

ثلاث وعشرون: المقابلة، وهي: (أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو اكثر، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب) [30]، ومثالها قوله تعالى: (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (التوبة:82)، فقد قابل بين الضحك القليل والبكاء الكثير، وهي مقابلة اثنين باثنين، ومثالها أيضا قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (الليل:5-10) وهي من مقابلة أربعة بأربعة، والمقابلة ذات حسن أسلوبي وأداء حيوي يجعل الذهن متابعا للمتكلم عند استخدامها، منتبها إلى الكلمات والجمل وما بينها من اتفاق وتباين، مما يدفع عنه السآمة والملل، ويغريه بالمتابعة والتأمل.

أربعة وعشرون: تشابه الأطراف، وهو: (أن يختم الكلام بما يناسب ابتداؤه بالمعنى) [31]، ومثاله قوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام:103)، فاللطيف يتناسب مع قوله (لا تدركه الأبصار)، والخبير يتناسب مع قوله (وهو يدرك الأبصار)، فصار الكلام وحدة متوائمة وسبيكة واحدة، وهذا من خصائص أسلوب القرآن التي يكاد ينفرد بها عن ما سواه.

خمسة وعشرون: الإرصاد، وهو: (أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل عليه إذا عرف الروي) [32]، ومثاله قوله تعالى: (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(التوبة: من الآية70) فقوله تعالى: (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) يجعل الذهن يتساءل: ما الذي أودى بهم إذا؟ فيأتي الجواب: (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، وهذا أسلوب فعال لتنبيه العقل وإثارة الفكر.

---

[30]- المصدر السابق، ص (352).

[31]- المصدر السابق، ص (354).

[32]- المصدر السابق، ص (356).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ست وعشرون: المشاكلة، وهي: (وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا) [33]، ومثالها قوله تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)(الشورى: من الآية40)، فقد سمى العقاب العادل سيئا؟ لأنه جاء بسبب السيئة نفسها، ووقع في الكلام مجاورا لها، والجزاء من جنس العمل؟ وهو وإن كان عادلا، ولكنه جاء نتيجة عمل سيئ، فالنتيجة مترتبة على السبب، وهذا معنى إضافي يمكن إضافته لتأثير المشاكلة في هذا السياق.

سبعة وعشرون: العكس والتبديل، وهو: (أن يقدم جزء من الكلام ثم يؤخر) [34]، ومثاله قوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (الروم:19). وهنا يتداخل الموت والحياة، فكل منهما يخرج الآخر، وكل منهما يصنع صاحبه، ومن ثم لا غرابة أن يكون عقب الموت حياة جديدة للإنسان، ومن ثم عقب بقوله: (وكذلك تخرجون)، فسبحان من يخلق الشيء وضده، وينتج الأشياء من أضدادها وهو على كل شيء قدير.

ثمانية وعشرون: اللف والنشر، وهو: (ذكر متعدد على التفصيل، أو الإجمال، ثم ما لكل واحد، من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه) [35]، ومثاله قوله تعالى: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (القصص:73)، فالسكن يكون في الليل وابتغاء الفضل يكون في النهار، والمعول في اللف والنشر على حكم العقل ليرد كل جملة في السياق إلى صاحبها، وهذا أولى من سياق كل متعدد مع ماله على حدة، وهو أسلوب فعال من أساليب اللغة التي اعتمد عليها القرآن الكريم في طاقته التعبيرية.

تسعة وعشرون: الجمع، وهو (أن يجمع متعدد في حكم) [36]، ومثاله قوله تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف: من الآية46). فقد جعل الزينة للاثنين معا: المال والبنون، ومن ثم فلا تكون الزينة كاملة إذا نقص أحدهما من حياة الإنسان.

ثلاثون: الجمع والتفريق، وهو (أن يدخل شيئان في معنى، ويفرق بين جهتي الإدخال) [37]، ومثاله قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً

---

[33]- المصدر السابق، ص (356).

[34]- المصدر السابق، ص (358).

[35]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (361).

[36]- المصدر السابق، ص(363).

[37]- المصدر السابق، ص(364-365).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

)(الإسراء: من الآية12). فقد جمع بين الليل والنهار بكلمة آيتين، ثم فرق بعد ذلك في بيان ما لكل واحد منهما، وهذا أسلوب قويم من أساليب اللغة يثير الفكر ويدعو للتأمل في ما يقوله المتكلم.

واحد وثلاثون: الجمع مع التفريق والتقسيم[38]، ومثاله قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (هود: 105- 108). فالمراد بالنفس في الآية الفرد من جنس الإنسان، ثم فرقه بحسب النتيجة إلى شقي وسعيد، ثم ذكر ما أعده لكل فريق يوم القيامة، في أسلوب بديع لافت مؤثر، ومما زاده جمالا هذا الاستثناء الذي تكرر مرتين في سياق ذكر الخلود للفريقين، وهو قوله: (إلا ما شاء ربك) فلقد احتارت العقول في فهمه وتأويله، ليعلم أن كل شيء بقبضته وأنه فعال لما يريد.

اثنان وثلاثون: التجريد، وهو (أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة لكمالها فيه)[39]، ومثاله قوله تعالى: (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (فصلت:28)، فقد جعل النار تشتمل على دار الخلد، ودار الخلد هي النار ذاتها، وذلك مبالغة في الزجر والترهيب.

ثلاثة وثلاثون: المذهب الكلامي، وهو (إيراد حجة المطلوب على طريقة أهل الكلام)[40]، ومثاله قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)(الأنبياء: من الآية22)، فالشراكة تكون بسبب الضعف عن تحقيق الشيء من دون معونة الآخرين، والآلهة يجب أن تكون قوية بنفسها غنية عن غيرها، ثم إن الشراكة قد ينتج عنها صراعات وعداوات وخلافات بين المتشاركين، مما يفسدها من أساسها، ولو كان هنالك آلهة متعددة لهذا الكون لفسد الكون، ولما كان الكون صالحا محكما متوازنا علمنا بالضرورة أنه صنع إله قوي واحد وهو الله العزيز الحكيم. ومثاله أيضا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وكيف استدل من ظواهر الكون على الصانع المبدع: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) (الأنعام:76)، فقد استثاره جمال الكوكب، فقال: هذا ربي! ولكن الرب ينبغي أن يكون حاضرا شاهدا قيوما لا

---

[38]- انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (509/2).

[39]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (368).

[40]- المصدر السابق، ص(374).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ينام ولا يغفل ولا يغيب، فعدل عنه إلى القمر، قال تعالى: (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) (الأنعام:77)، وحصل معه في القمر ما حصل في الكوكب، فاتجه على الشمس، ومنها إلى عبادة الحي القيوم، قال تعالى: (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (الأنعام:78)، والقرآن سنده العقل، وهو قائم على الحجج والبراهين، وهذا ما يقويه وينصره في كل زمان ومكان، وهذا الذي يعطيه القبول والخلود، فهو صالح لأهل قرطبة وغرناطة كصلاحه لأهل مكة والمدينة، وهو صالح لأهل القرن الخامس عشر الهجري كصلاحه لأهل القرن الأول، وهذا أحد أهم العوامل في حيوية القرآن وسر بقائه معجزا خالدا إلى يوم الدين، فحيث وجد العلم والعقل والبحث والتجريب فهي بيئته وموطنه، بل هو يساعد تلك البيئة ويرفدها بما فيه من مظاهر الإعجاز العلمي ليثبت للعالم كله أنه من لدن رب العالمين.

أربعة وثلاثون: تأكيد المدح بما يشبه الذم، ومثاله قوله تعالى: (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً)(مريم: من الآية62)، فهو حين نفى اللغو واستثنى منه السلام أثار ذهن المتلقي فحسب أن السلام من اللغو، وأن هذا ذما له، بيد أنه في الحقيقة مدح، وهذا أسلوب عربي فصيح يستثير المتلقي ويحرك انتباهه ومشاعره.

خمسة وثلاثون: تجاهل العارف، وهو: (سوق المعلوم مساق غيره لنكتة) [41]، ومثاله قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (سبأ:7)، فقولهم رجل هكذا بالتنكير وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم هو أسلوب من أساليب البيان العربي التي تثري البيان وتمنحه حركة وحيوية.

ستة وثلاثون: القول بالموجب، وهو ضربان أحدهما: (أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فتثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء، من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم أو في انتفائه عنه) [42]، ومثاله قوله تعالى: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (المنافقون:8)، فقد ادعى المنافقون لأنفسهم بالعزة، وللمؤمنين بالذلة، فسلب الله تعالى صفة العزة عن المنافقين وجعلها للمؤمنين، ووصف المنافقين بالغفلة والجهل عن المعنى الحقيقي للعزة والمذلة، فالعزيز من أتى آمنا يوم القيامة، والذليل من تخطفه النار أو يلقى فيها، ولا ريب أن تصحيح المعلومة

---

[41]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (385-386).

[42]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (532/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتوجيهها الوجهة التي تليق بها، وسلبها عن من ادعاها وليس أهلا لها، هو أسلوب يمنح البيان حركة داخلية، ويثير جدلا وتساؤلا في النفس لتبحث عن المعنى السليم للأشياء وعن تمييز أهل الحقيقة ممن يدعيها.

سبعة وثلاثون: الافتنان، وهو (أن يفتن المتكلم فيأتي بفنين متضادين من فنون الكلام في بيت واحد أو جملة واحدة، مثل النسيب والحماسة، والهجاء والهناء والعزاء)[43]، ومثاله قوله تعالى: (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) (مريم:72) جمع بين الوعد والوعيد، وهذا من سحر البيان وعجيب البلاغة، إذ يدفع السآمة في ما لو لم يفتنن في الأغراض، ويظهر قدرة المتكلم على الأخذ بنواصي الكلام، ويثير الفكر في أكثر من اتجاه.

ثمانية وثلاثون: الاستثناء، قال ابن أبي الإصبع (الاستثناء استثناءان: لغوي وصناعي، فاللغوي إخراج القليل من الكثير، وقد فرغ النحاة من ذلك مفصلا في كتبهم، والصناعي هو الذي يفيد بعد إخراج القليل من الكثير معنى زائدا، يعد من محاسن الكلام، يستحق به الإتيان في أبواب البديع)[44] ومثاله قوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)(الحجرات: من الآية14)، فقد أخرجهم من دائرة الإيمان وجعلهم في دائرة الإسلام، وهذا ما دفع العلماء للبحث عن الفرق بين الإيمان والإسلام، ومتى يتداخلان ومتى يتباينان، وإنه لباب من أبواب العلم فيه مجال كبير للبحث والاجتهاد.

تسعة وثلاثون: الإبهام، وله أسباب ذكرها السيوطي[45]، وسنوجز في ذكر بعضها، فمنها: الاستغناء ببيانه في موضع آخر، كقوله تعالى: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)(الفاتحة: من الآية7)، فإنه مبين في قوله: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) (النساء:69). الثاني: أن يتعين لاشتهاره، كقوله تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)(البقرة: من الآية35)، ولم يقل حواء لأنه ليس له غيرها. الثالث: قصد الستر عليه، ليكون أبلغ في استعطافه، نحو: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) (البقرة:204). وهو الأخنس بن شريق وقد أسلم بعد وحسن إسلامه. الرابع: تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم، نحو: (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي

---

[43]- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حفني شرف، ص (588).

[44]- المصدر السابق، المصدر السابق، ص (333).

[45] - معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (1/366-367).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْقُرْبَى)(النور: من الآية22) والمراد الصديق. والإبهام في الكتاب العزيز أحد وجوه إعجازه، فهو يدفع المرء للبحث عن المبهم من جهة، وهو يعم من كانت هذه صفته من جهة أخرى عندما يكون المبهم من الأعلام من جهة أخرى، كما أنه يغني عن الذكر في حالة عدم الضرورة من جهة ثالثة، وهذه عوامل تفعل البيان وتجعله يمور حركة ونشاطا.

أربعون: وقوع المعرب، قال السيوطي: (حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن، لتتم إحاطته بكل شيء، فاختير من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب) [46] وفي القرآن من غير العربية كما ذكر أبو بكر الواسطي: (الفرس، والنبط، والروم، والحبشة، والبربر، والسريانية، والعبرانية، والقبط) [47]، فمن ذلك: أباريق: فارسية، أسفار هي الكتب في السريانية، حواريون: الغسالون بالنبطية، الرقيم: اللوح بالرومية، السجل: الرجل بلغة الحبشة، مناص: فرار بالنبطية[48]، ولا شك أن اختيار القرآن بعض الألفاظ المعربة دليل على أنه كتاب عالمي للناس جميعا، وليس خاصا بالعرب وحدهم، مما يغري الأمم الأخرى بقراءته والبحث فيه، وتفيؤ ظلاله.

واحد وأربعون: المشترك اللفظي (وهذا الوجه من أعظم وجوه إعجازه، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجها، وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر، وقد صنف في هذا النوع وفي عكسه وهو ما اختلف لفظه واتحد معناه كثير من المتقدمين والمتأخرين، منهم: ابن الجوزي، وابن أبي المعافى، وأبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصري، وابن فارس، وآخرون)[49]، ولا شك أن الاشتراك وجه من وجوه إعجازه القرآن، يقول أبو الدرداء: (إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها) [50]، فمن ذلك كلمة الهدى تأتي على سبعة عشر وجها[51]: منها: الثبات: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة:6)، والبيان: (أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ)(البقرة: من الآية5)، والدين: (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)(البقرة: من الآية120)،

---

[46] – المصدر السابق، (148/1).

[47] – المصدر السابق، (154/1).

[48] – انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (180/1-185)، مكتبة البابي الحلبي بمصر، الطبعة الرابعة، 1398هـ/ 1978م.

[49] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (387/1).

[50] – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (185/1).

[51] – انظر: المصدر السابق، (185/1-186).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والإيمان: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً)(مريم: من الآية76)، والدعاء (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)(الأنبياء: من الآية73)، وبمعنى الرسل والكتب: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدى)(البقرة: من الآية38)، والمعرفة: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)(النحل: من الآية16)... وكثرة هذه الوجوه تغري المرء بالبحث والاجتهاد لمعرفتها، وهذا من مزايا القرآن الكريم.

اثنان وأربعون: وقوع الغريب فيه، قال الراغب: (إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن في كونه أول البنيان في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه) [52]، واحتوى القرآن على أربعين لغة من لغات القبائل العربية، كما ذكر السيوطي نقلا عن أبي بكر الواسطي[53]، وهذا مثار بحث للعرب وغيرهم، ومحرك دافع لمعرفة خصائص لغة القرآن التي احتوت على لغات العرب ولهجاتها جميعا، (ولقد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرؤوه بلحونهم وإن اختلفت وتناقضت، ثم بقي مع ذلك على فصاحته وخلوصه، لأن هذه الفصاحة هي في الوضع التركيبي كما أومأنا إليه آنفا، وتلك سياسة لغوية استدرج بها العرب إلى الإجماع على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة، كما وقع ذلك من بعد) [54]

ثلاثة وأربعون: مشكل القرآن، قال السيوطي: (الوجه السابع من وجوه إعجازه ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات، وكلامه تعالى منزه عن ذلك، بل فيه إعجاز للكلام كما صنف في الحديث، وبيان ذلك الجمع بين الأحاديث المتعارضة، وقد تكلم في ذلك ابن عباس، وحكي عنه التوقف في بعضها) [55]، ومشكل القرآن موضع بحث وعناية العلماء وممن أفرده بالتأليف: ابن قتيبة رحمه الله، وممن عرض إلى جوانب منه أبو عبيدة والفراء وغيرهم من الأئمة، وهو أحد عوامل ديناميكية القرآن الكريم في كل زمان ومكان.

---

[52] – المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، ص (6)، دار المعرفة، بيرت.

[53] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (154/1).

[54]– تاريخ آداب العرب، للرافعي، (64/2-65)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1394هـ/ 1974م.

[55] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (73/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أربعة وأربعون: القسم، (والقصد بالقسم: تحقيق الخبر وتوكيده، حتى جعلوا مثل: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)(المنافقون: من الآية1) قسما وإن كان فيه إخبار بشهادة، لأنه لما جاء توكيدا للخبر سمي قسما)[56]

وقد جاء القسم في القرآن على صيغ عجيبة، فمنها:

القسم برب محمد، كما في قوله تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) (يونس:53)، ومنها القسم برب السماء والأرض: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذريات:23)، ومنها القسم بلفظ الجلالة: (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) (يوسف:73).

والقسم من البشر يكون بالله سبحانه أو بأسمائه وصفاته، وأما منه سبحانه فيقسم بنفسه أو بأي شيء من مخلوقاته، فقد أقسم الله بأمور كثيرة، من ذلك:

- باسمه: (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النحل:63).

- وأقسم بنبيه: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) (الحجر:72) قال ابن عباس: (ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره)[57].

- وأقسم بالزمان وما يحتويه من أقسام الأوقات، من ذلك القسم بالعصر: (وَالْعَصْرِ) (العصر:1)، وأقسم بوقت الضحى: (وَالضُّحَى) (الضحى:1)، وبالشمس والضحى معا: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (الشمس:1)، وبالليل: (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) (الضحى:2)، وأقسم بيوم الدين: (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (القيامة:1).

- وأقسم بعدد من الأمكنة والبلدان: من ذلك: النجوم الخنس:(فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ) وبمواقع النجوم: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) (الواقعة:75)، (التكوير:15)، وأقسم بمكة: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) (البلد:1-2)، وقال: (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (التين:3)، وبطور سيناء: (وَالطُّورِ) (الطور:1)

- وأقسم بأشياء مختلفة تتعلق بالكون والإنسان: كالشفق:(فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) (الانشقاق:16)، والنفس البشرية اللوامة: (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة:2)، والرياح: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا)

---

[56] - الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (169/2).

[57] - المصدر السابق، (170/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(الذريات:1)، وأدوات الكتابة: (نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (القلم:1)

- وأقسم قسما جامعا بما يبصره الإنسان وما لا يبصره من آيات الله سبحانه: (فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لا تُبْصِرُونَ) (الحاقة:38-39).

وأسلوب القسم من عجائب القرآن، فما أقسم الله به، وما أقسم عليه، لهو من الأمور التي ينبغي البحث والعناء لمعرفتها، ومعرفة أسباب القسم، وغايته التربوية والدينية، وهذا كله بالجملة مما يجعل القرآن كتابا فريدا لافتا للأنظار بما حواه من مزايا لغوية وبلاغية وأسلوبية جعلته كتابا ديناميكيا خالدا أبد الدهر بحمد الله تعالى.

وخلاصة هذا المبحث أن طاقات اللغة العربية التعبيرية والبيانية كثيرة، واستخداماتها متعددة، وقد عرضنا بعض النماذج من هذه الطاقات مما وظفها القرآن في أداء رسالته ومقاصده، وهذا ما جعل القرآن كتابا ديناميكيا حيا ناطقا، منه تبدأ الحياة وفيه تترعرع وتنمو وتتجدد، وإليه تعود، فهو سفر الخلود في هذا الكون الجميل، وهو أحسن الحديث من لدن احسن الخالقين إلى الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الثاني:

ديناميكية الأداء الصوتي

للقرآن أداء صوتي متميز وتأثير صوتي عجيب، وهو يتجلى في تنقله بين مقاطع مختلفة وأساليب متعددة من الأداء الصوتي، مما يثير الشجن أو الأمل أو الفرح لدى سامعه ولو لم يكن يعرف العربية، وليس أدل على ذلك مما جرى مع سيد قطب (في سفينة أجنبية أقلته هو ورفاقه، وأقام فيها صلاة الجمعة وخطب، فتأثر الأعاجم بسماع القرآن... وقالت يوغسلافية: إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منه حرفا. وقد فرقت هذه اليوغسلافية بالسماع بين كلام الخطيب وبين الآيات التي يوردها في خطبته، وأحست أن الفقرات القرآنية كانت تحدث فيها رعشة وقشعريرة، كما لو كان الإمام مملوءاً من روح القدس، بحسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها. وضرب سيد قطب مثلا على ذلك أيضا سماع العوام للقرآن، فهم يتأثرون به كتلك اليوغسلافية، دون أن يفقهوا منه شيئا، ويرى من وجوه الإعجاز: الأداء القرآني الواسع الدقيق الجميل المتناسق بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو) [58]

وقد تنبه العلماء من قبل إلى هذه الميزة الصوتية للقرآن الكريم، وعدوها من وجوه إعجازه، يقول السيوطي في ذكره لوجوه الإعجاز: (الوجه الحادي والعشرون من وجوه إعجازه: أن سامعه لا يمجه، وقارئه لا يمله، فتلذ له الأسماع، وتشغف له القلوب، فلا تزيده تلاوته إلا حلاوة، ولا ترديده إلا محبة، ولا يزال غضا طريا، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه، يُمل مع الترديد، ويُعادى إذا أعيد) [59]

وما يعنينا هنا تتبع ديناميكية الأداء الصوتي في القرآن الكريم، وذلك من خلال أشياء عدة سنبينها في هذا المبحث.

أولا: الجناس

الجناس بين اللفظين هو من أهم المؤثرات الصوتية التي تطرب الأذن بما تؤديه من إيقاع متقارب من جهة، مما يجعل الأذن تصغي له وتهش لسماعه، كما أنه يثر الفكر لتعقب المعاني

---

[58] - فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق، نعيم الحمصي، ص (350)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/ 1980م.

[59] - معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (184/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المتباينة للكلمات ذات الأداء الصوتي المتقارب، والجناس بين الكلمتين في الاصطلاح هو: (تشابههما في اللفظ)[60]، وهو قسمان: تام وغير تام، فالتام منه: أن يتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها[61]، ومنه قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ)(الروم: من الآية55)، فالساعة تكررت بمعنيين مختلفين، ولكنها ذات إيقاع واحد في السمع، مما يثير التأمل في اختلاف المعنيين لكلمة واحدة تكررت في الجملة.

وغير التام ما كان فيه اختلاف في أحد الأمور الأربعة السابقة، وعلى هذا الأساس يكون لدينا أربعة أقسام للجناس غير التام.

القسم الأول: الجناس المحرف: (إن اختلفا في هيئات الحروف فقط)[62]، ومثاله قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) (الصافات:72- 73)، فكلمة منذرين جاءت بصيغة اسم الفاعل مرة واسم المفعول مرة أخرى، وقد أدت إيقاعين متقاربين، لمعنيين مختلفين.

القسم الثاني: أن تختلف الكلمتان في عدد الحروف ويسمى الجناس ناقصا[63]، ومثاله قوله تعالى: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) (القيامة:29-30)، فكلمة المساق زيد فيها الميم عن كلمة الساق، فهو جناس ناقص ولكنه ممتع وشجي، وهو في سياق الآية هنا يبعث الهول من رحلة الموت والانتقال إلى الآخرة.

القسم الثالث: أن تختلف الكلمتان في أنواع الحروف، ويشترط أن لا يقع الاختلاف بأكثر من حرف، فإذا كان الحرفان متقاربان سمي الجناس مضارعا[64]، ومثاله قوله تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (الأنعام:26)، فالجناس بين ينهون وينأون هو جناس مضارع يؤدي التقارب الصوتي بين الهمزة والهاء إلى انسجام في الإيقاع، ومخرجهما من أقصى الحلق كما ذكر سيبويه[65]، وقد وقع الجناس في وسط الكلمة.

وإن كانا غير متقاربين سمي لاحقا، ومثاله قوله تعالى: (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) (الهمزة:1)،

---

[60]- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (388).

[61]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (535/2).

[62]- المصدر السابق، (537/2).

[63]- انظر: المصدر السابق، (538/2).

[64]- انظر: المصدر السابق، (540/2).

[65]- انظر: الأصوات اللغوية، للدكتور إبراهيم أنيس، ص (113)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1981م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالجناس بين كلمتي همزة ولمزة، وقد وقع الخلاف في الحرف الأول، فالهمزة في كلمة همزة من أقصى الحلق واللام في كلمة لمزة من حافة اللسان[66]. ونحوه أيضا قوله تعالى: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)(النمل: من الآية22)، والسين في كلمة سبأ من حروف الصفير ومخرجها من طرف اللسان فوق الثنايا العليا، وأما النون في قوله نبأ فهي من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا[67]. وقد يقع الخلاف في وسط الكلمة كما في قوله تعالى أيضا: (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) (غافر:75)، فالفاء في قوله تفرحون من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، وأما الميم في قوله تمرحون فهو من بين الشفتين[68]. وقد يقع الخلاف في الحرف الأخير كما في قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ)(النساء: من الآية83)، فكلمة أمر وأمن، يختلفان بالراء والنون، وهما من مخرج واحد في الأصل، ولكن الراء أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء كما ذكر ابن جني[69]،

القسم الرابع: أن تختلف الكلمتان في ترتيب الحروف، ويسمى جناس قلب[70]، ومثاله قوله تعالى: (فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائيلَ)(طه: من الآية94).

ثانيا: ملحقات الجناس

ويلحق بالجناس أن يجمع اللفظين الاشتقاق[71]، كما في قوله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) (الروم: من الآية43)، فقوله أقم فيه الأمر بالنهوض بأعباء الرسالة، وقوله القيم فيه نعت للدين القويم، وهي عملية متكاملة فليس الغرض إقامة الوجه نحو أي دين كان وإنما الغرض إقامته وتوجيهه نحو الدين القيم، فهنا تجتمع العبادة والصواب، فليس ثمة فائدة في أحدهما دون الآخر، ولقد اجتمع الأمر مع النعت في وحدة صوتية رائعة تكاد تأخذ بالإنسان وتزج به في الصراط المستقيم. ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى: (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ) (الواقعة:89)، فما أجمل أن يجتمع الروح والريحان هنا، في الطريق إلى الجنة، مع ما في الكلمتين

---

[66]- انظر: المرجع السابق ص (131)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1981م.

[67]- انظر: المرجع السابق، ص (131-132).

[68]- انظر: المرجع السابق، ص (133).

[69]- انظر: المرجع السابق، ص (141).

[70]- انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (541/2).

[71]- المصدر السابق، (542/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من تناغم صوتي يقابله جمال المعنى الذي تفيض به كل كلمة مع صاحبتها، فيكون أكثر إشراقا مما لو كانت مفردة وحدها في السياق.

ويلحق بالجناس أيضا: رد العجز على الصدر، وهو: (أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة، والآخر في آخرها) [72]، ومثاله قوله تعالى: (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه)(الأحزاب: من الآية37)، فقد تكرر الفعل تخشى مرتين، في الولى كان مذموما لأنه خشية للناس الذين لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا رشدا، وفي الثانية كان ممدوحا لأنه لرب الناس ومالكهم ومن بيده الأمر كله، وهو في الثانية مصحوب بحرف المد وهاء الضمير، وكأن هذا المد الصوتي هو مد للخشية نفسه لتتجاوز البشر وأدنياهم وقيمهم وتتجه إلى الله العلي الكبير.

وأقسام الجناس كثيرة، واستعراضها جميعا يطول، ويكفي أن نشير إلى أن انسجام الصوات وتقاربها وهو ما يفيده الجناس ليس على حساب المعنى، ولم يتعمد القرآن مجيء الجناس ولم يقصد إليه ويجعل المعنى تبعا له كما يفعل بعض البلغاء، بل جعله تابعا للمعنى، ويسوقه عفوا دون قصد، فيؤدي الانسجام الصوتي بين الكلمات متعة للسمع، وهي مصحوبة بمتعة للفكر أيضا عندما يبحث عن خبايا المعاني التي تستتر وراء جمال الألفاظ وتناغمها وانسجامها الصوتي، وهذا من ديناميكية القرآن ودلائل إعجازه.

ثالثا: الفواصل القرآنية

الفواصل هي رؤوس الآيات القرآنية، (ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعا، لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضا، لأنها منه وخاصة به في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر، لأنها صفة لكتاب الله فلا تتعداه) [73]

والفواصل القرآنية ذات جرس موسيقي رائع، تجعل الأذن تتشنف لسماعها، والفكر يثور عند ذكرها، والقلب يصحو لدى ترددها، والخيال ينبعث مع موسيقاها وحسن أدائها، ومن أجل مراعاة هذه الفواصل يتم تطويع اللغة وقواعدها خدمة لها، فقد نقل السيوطي عن ابن الصائغ قوله: (اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب فيها أمور من مخالفة الأصول. قال:

---

[72] – التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (392-393).

[73] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (25/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة، فعثرت منها على ما ينيف على أربعين حكما) [74]

وهذه بعض الحالات التي يرتكب فيها مخالفة الأصول مراعاة للفاصلة:

1- تقديم المعمول على العامل، نحو قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:5)، والتقديم هنا يفيد القصر بجعل العبادة متجهة إلى الله وحده دون سواه، فهو مقصود لذاته، فضلا عن إفادته للفاصلة النونية المسبوقة بحرف مد وهو الياء، مما يعطي صوتا رتيبا هادئا لا تجده مما لو جرى الكلام على الأصل فقلت نعبد إياك ونستعين إياك.

2- تقديم ما هو متأخر في الزمان، نحو قوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى) (النجم:25)، والسبب هو أن الآخرة أهم من الدنيا في ميزان الله، ولذلك نردد دوما في الصلاة: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة:4).

3- تقديم الفاضل على الأفضل، نحو قوله تعالى: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) (طه:70)، وهذا أسلوب عربي يسمى الترقي، تقول: جاء الجنود والوزير والملك[75]، وبضده التدلي، وورد الاثنان في القرآن الكريم، قال تعالى: (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) (لأعراف:122).

4- تقديم الضمير على ما يفسره، نحو قوله تعالى: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) (طه:67)

5- تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد، نحو قوله تعالى: (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُورا)(الإسراء: من الآية13). والمهم هنا لقاء الكتاب قبل نشره، ولذا قدم الفعل وهو صفة الكتاب وأخر منشورا.

6- حذف ياء المنقوص المعرف، نحو قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) (الرعد:9)

7- حذف ياء الفعل غير المجزوم، نحو قوله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) (الفجر:4)

8- حذف ياء الإضافة، نحو قوله تعالى: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) (القمر:21)

---

[74] - المصدر السابق، (26/1).

[75] - شروح التلخيص (شرح السبكي) (473/4)، دار السرور، بيروت، (مصورة عن طبعة مصطفى البابي الحلبي).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

9- حرف المد، نحو: الظنونا، والرسولا، والسبيلا، ومنه إبقاؤه مع الجزم، نحو قوله تعالى: (لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى)(طـــه: من الآية77)، وقوله أيضا: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى) (الأعلى:6)

10- صرف ما لا ينصرف، نحو قوله تعالى: (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا) (الإنسان:15)، وقوله أيضا: (قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّـــةٍ قَـــدَّرُوهَا تَقْـــدِيراً) (الإنسان:16)

11- إيثار تذكير الجنس، نحو قوله تعالى: (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِـــرٍ) (القمر:20)

12- إيثار تأنيثه،، نحو قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)(الحاقة: من الآية7)

13- إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر، نحو قوله تعالى: (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِـــنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت:3) و لم يقـــل الـــذين كذبوا

14- إيثار أغرب اللفظتين، نحو قوله تعالى: (تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى) (الـــنجم:22) و لم يقل جائرة، وقوله: (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ) (الهمزة:4)، و لم يقل جهنم أو النار.

15- حذف المفعول، نحو قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) (الليل:5)

16- الاستغناء بالإفراد عن التثنية، نحو قوله تعالى: (فَلا يُخْرِجَنَّكُمَـــا مِـــنَ الْجَنَّـــةِ فَتَشْقَى)(طـــه: من الآية117)

17- الاستغناء بالإفراد عن الجمع، نحو قوله تعالى: (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)(الفرقان: من الآية74)، وقوله: (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)(الفرقان: من الآية74)، و لم يقل أئمة.

18- حذف الفاعل ونيابة المفعول عنه، نحو قوله تعالى: (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَـــةٍ تُجْزَى) (الليل:19)

19- العدول عن صيغة المضي إلى صيغة الاستقبال، نحو قوله تعالى: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُـــونَ)(البقرة: مـــن الآية87). الأصل قتلتم. ولعله عدل عنه استحضارا لجريمة القتل البشعة التي يقومـــون بها.

20- تغيير بنية الكلمة، نحو قوله تعالى: (وَطُورِ سِينِينَ) (التين:2). والأصل: طـــور سيناء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وينبغي أن نؤكد هنا أن هذه الحالات التي يرتكب فيها مخالفة الأصول مراعاة للفاصلة، لا يكون ذلك مطلقا على حساب المعنى، بل إن المعنى لا يتم إلا بوضع الفاصلة كما هي في الذكر الحكيم، فالفواصل تبع للمعاني وليس العكس، فإذا كانت الفاصلة تخدم المعنى مع أدائها الجمال الصوتي عند الوقوف عليها، فهذا يكون بحق من صور الإعجاز التي انفرد بها القرآن عن شعر الشعراء وسجع الكهان، فكم في قوافيهم من تكلف وحشو!! فضلا على أن تلك القوافي يتبعها المعنى ولا تتبعه بالضرورة، مما يجعله متباينة في مبناها ومغزاها عن فواصل القرآن التي جمعت إلى حسن الصوت حسن المعنى، فصار القرآن بحرا من الحسن لا ينتهي.

علاقة الوقف بالفواصل:

الوقف هو (قطع النطق عند آخر الكلمة) [76]، والوقف وثيق الصلة بالفواصل، قال الجعبري: (لمعرفة الفواصل طريقان: توقيفي وقياسي، أما التوقيفي: فما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائما تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائما تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة، أو لتعريف الوقف التام أو الاستراحة، والوصل أن يكون غير فاصلة، أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها، وأما القياسي فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص المناسب، ولا محذور في ذلك لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان، وإنما غايته أنه محل فصل ووصل، والوقوف على كل كلمة كلمة جائز، ووصل القرآن كله جائز، فاحتاج القياس إلى طريق تعريفه، فنقول: فاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر وقافية البيت في الشعر، وما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحركة والإشباع،والتوجيه، فليس بعيب في الفاصلة، وجاز الانتقال في الفاصلة والقرينة وقافية الأرجوزة من نوع إلى آخر بخلاف قافية القصيدة، ومن ثم نرى ترجعون مع عليم، والميعاد مع الثواب، والطارق مع الثاقب، والأصل في الفاصلة والقرينة المتجردة في الآية والسجعة المساواة) [77]، وقد يكون الوقف بهاء السكت، وهو: (كل متحرك يجوز أن تقف عليه بالسكون، كما علمت، ويجوز أن يوقف على بعض المتحركات أيضا بهاء ساكنة تسمى هاء السكت) [78]

---

[76] - جامع الدروس العربية، للغلاييني، (126/2)، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة والثلاثون، 1417هـ/ 1997م.

[77] - الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (124/2).

[78] - جامع الدروس العربية، للغلاييني، (131/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رابعا: تقسيمات الفواصل

للفواصل عند البلاغيين تقسيمات عدة، قال السيوطي: (وقسم البديعيون السجع، ومثله الفواصل، إلى أقسام: مطرف، ومتواز، ومتوازن، ومرصع، ومتماثل.

فالمطرف أن تختلف الفاصلتان في الوزن، وتتفقا في حروف السجع، نحو قوله تعالى: (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) (نوح:13-14).

والمتوازي: أن يتفقا وزنا وتقفية، ولم يكن ما في الأولى مقابلا لما في الثانية في الوزن والتقفية، نحو قوله تعالى: (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ) (الغاشية:13-14)

والمتوازن: أن يتفقا في الوزن دون التقفية، نحو قوله تعالى: (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) (الغاشية:15-16).

والمرصع: أن يتفقا وزنا وتقفية، ويكون ما في الأولى مقابلا لما في الثانية كذلك، نحو قوله تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) (الغاشية:25-26)، وقوله أيضا: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (الانفطار:13-14).

والمتماثل: أن يتساويا في الوزن دون التقفية، ويكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية، فهو بالنسبة إلى المرصع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازي، نحو قوله تعالى: (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الصافات:117-118)، فالكتاب والصراط متوازنان، وكذا المستبين والمستقيم، واختلفا في الحرف الأخير)[79].

وتتبع الفواصل وترتيبها ضمن هذه الأقسام يدل على مدى عناية أهل العلم بالمؤثرات الصوتية في سياق الكلام، وهي مؤثرات لها من دلالات المعنى مثل ما لها من قوة الجرس والإيحاء، وهذا كله من دلائل إعجاز كتاب الله الذي تتفجر أنهار العلم وينابيع الحكمة من بين حروفه وكلماته، ومعانيه وآياته.

خامسا: لزوم ما لا يلزم

وهو: (أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع)[80]، كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ) (الأعراف:201-202)، فقد جاء قبل حرف الروي حرفا الواو والراء في كل من: مبصرون، ويقصرون، وقد يلتزم بحرف واحد

---

[79] - معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (1/39-40).

[80] - الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (2/553).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كالهاء في قوله أيضا: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ) (الضحى:9-10)، والتزام أكثر من حرف ليس مطلوبا، ولكنه دليل قدرة أدبية، وهو أكثر إمتاعا للسمع بسبب انسجام الأصوات المشتركة، ولعل هذا ما دفع أبا العلاء المعري لكتابة ديوانه اللزوميات.

سادسا: الإعلال

وهو (حذف حرف العلة أو قلبه أو تسكينه) [81]، والإعلال في الأصل من مباحث اللغة والصرف، وقد استخدمه القرآن وفق قواعد اللغة، فأدى بذلك إلى أصوات سهلة ندية محببة للسمع، فمثلا من مباحث الإعلال بالقلب أن تقلب الواو ياء في ثمانية مواضع، أولها: (أن تسكن بعد كسرة، كميعاد وميزان، وأصلها مِوْعادٌ، ومِوْزانٌ، لأنهما من الوعد والوزن) [82]، والإعلال يدل على رشاقة العربية وسهولة نطقها وحيويتها وملاءمتها لواقع الحياة، فقد تخلصت العربية بواسطته من صعوبة النطق بالألفاظ الكزة الغليظة، وقد وظف القرآن هذه الظاهرة في أسلوبه، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)(آل عمران: من الآية9)، وقال أيضا: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن:7)، وتتبع ظاهرة الإعلال في القرآن الكريم تحتاج إلى دراسة مستقلة.

سابعا: الإبدال

وهو: (إزالة حرف، ووضع آخر مكانه) [83] فمثلا: (تبدل الواو والياء همزة، إذا تطرفتا بعد ألف زائدة، كدعاء وبناء، والأصل: دُعاوٌ وبُنايٌ، لأنهما من دعا يدعو، وبنى يبني، وتشاركهما في ذلك الألف، فإنها إذا تطرفت بعد ألف زائدة تبدل همزة) [84]، وقد جرى القرآن على العرف العربي في قواعد اللغة ومنها الإبدال، قال تعالى: (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)(آل عمران: من الآية38)، فتخلص من كل ما فيه ثقل على السمع واللسان.

يبقى أن نشير إلى ما ذكره السيوطي في هذا الصدد حيث قال: (وجعل منه ابن فارس: (فَانْفَلَقَ) أي: فانفرق، ولذا قال: (فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)(الشعراء: من الآية63)

---

[81] - جامع الدروس العربية، للغلاييني، (104/2)، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة والثلاثون، 1417هـ/ 1997م.

[82] - المرجع السابق(107/2).

[83] - المرجع السابق، (120/2).

[84] - نفسه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالراء واللام يتعاقبان) [85]، وإبدال الحروف باب واسع من اللغة، وفيه استثارة وتنبيه للعقل والتفكير عن طريق المادة الصوتية.

ثامنا: الإدغام

وهو (إدخال حرف في حرف آخر من جنسه، بحيث يصيران حرفا واحدا مشددا، مثل: مدَّ يمدُّ مدّاً، وأصلها: مدَدَ، يمدُدُ، مدْدا، وحكم الحرفين في الإدغام أن يكون أولهما ساكنا، والثاني متحركا، بلا فاصل بينهما) [86]. وقد سار القرآن وفق قواعد اللغة، ووظف الإدغام في بنائه اللغوي، فأدى بواسطته إيقاعا محكما، وكلاما سهلا على اللسان والأسماع، قال تعالى: (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً)(مريم: من الآية75)

والخلاصة هي أن القرآن الكريم اعتمد على مجموعة من العوامل الصوتية، منها ما هو من خصائص اللفظ العربي، ومنها ما ابتدعه القرآن ونعني به نظام الفواصل الذي لم يكن معروفا لدى العرب قبل نزول القرآن، مما جعله ذا إيقاع خاص، يأخذ بالأسماع التي تتشنف لسماعه مثل ما يأخذ بالقلوب والألباب.

---

[85] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (297/1).

[86] – جامع الدروس العربية، للغلاييني، (97/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الثالث:

ديناميكية البعد النفسي الداخلي

القرآن الكريم يتعامل مع النفس الإنسانية بديناميكية لا نظير لها، ونعني بها حركة القرآن في الإنسان، أي حركته بين العقل والعاطفة، وما يثيره من كوامن الفكر والخيال والإبداع، وقدرته على تغيير ما في النفس، واستجاشته لها ودفعها في دروب الخير والفلاح، ولم يجتمع هذا التأثير في النفس البشرية وتوجيهها وتهذيبها والسمو بها في أقل وقت ممكن كمثل ما اجتمع للقرآن الكريم، ويعود هذا لأسباب:

السبب الأول: معرفة الله لهذه النفس البشرية، فهو الذي خلقها، وهو الذي بث فيها الانفعالات والشهوات والميول والغرائز، قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس:7-8)، ومن ثم كان أسلوب القرآن (يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال معا، انظر إليه مثلا وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا، ويمتع العاطفة إمتاعا، بما جاء في طي الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال الله سبحانه في سورة فصلت: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (فصلت:39)... تأمل في الأسلوب البارع، الذي أقنع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد)[87]

السبب الثاني: دعوته عز وجل للتأمل في آثار قدرته من خلال النفس البشرية، قال تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) (الذريات:21)، فهذه النفس معجزة من معجزات الله تعالى، وتتبع أحوالها وخصائصها في حركاتها وسكناتها مما يقود إلى الإقرار بوحدانيته عز وجل.

السبب الثالث: طاقة العبارة القرآنية، وذلك يرجع إلى أن (القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعا إنسانيا ألبتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد... وما دامت قوة الخلق ليست في قدرة المخلوق، فليس في قدرة بشر معارضة هذا الأسلوب ما دامت الأرض أرضا)[88]

السبب الرابع: تشخيصه عز وجل للعوارض التي تنتاب النفس البشرية، ففي حالة الكفر قلوب

---

[87]- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، (2/313-314)، دار الفكر.

[88]- تاريخ آداب العرب، للرافعي، (2/203-204).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقفلة لا تفقه ولا تتعلم، قال تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (البقرة:7)، وفي حالة النفاق قلوب مريضة تخاف على مصالحها الدنيوية إذا انخرطت في ميدان الدعوة، قال تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) (البقرة:10)، وفي حالة الإيمان قلوب مطمئنة رضية سعيدة بذكر الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:28)، وفي حالة السمو والإشراق يبدو الإيثار سمة الأنصار، قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:9)، وفي حالة الهلع والفزع يبدو طيش المنافقين وحمقهم، قال تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (المنافقون:4). وفي حالة الأمومة يبدو الحزن والشفقة في قصة موسى عليه السلام، قال تعالى: (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (القصص:13). وفي حالة التوبة والعرفان، تفيض الدموع منهمرة في محراب الإيمان، قال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (المائدة:83)، وكذا الشأن في حالة الفقراء من المؤمنين عند الجهاد حيث تنبعث الدموع صادقة لعدم التمكن من المشاركة فيه، قال تعالى: (وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) (التوبة:92)، وفي مقابل هذه الصورة هنالك هلع ورعب من الحرب في نفوس المنافقين المترددين في إيمانهم، قال تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ) (محمد:20)، بل إنهم ليفرحون بسلامتهم عند عزوفهم عن مواطن البأس، ويندون بأصحابهم ممن شاركوا فيه، قال تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران:168)، وفي الخلافات الزوجية يكون الصراع حول المال والمهر، قال تعالى: (وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ)(النساء: من الآية128)

وبعد أن استعرضنا أسباب اهتمام القرآن بالنفس البشرية وتأثيره فيها، نحلل بعض الأمثلة من الآيات القرآنية التي تدل على ديناميكية القرآن في حديثه عن النفس البشرية:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المثال الأول نموذج من قصة موسى، وهو قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (القصص:7)، هاهنا أم خائفة على فلذة كبدها، فيأتيها الأمر بإرضاعه في المرحلة الأولى، فإذا شعرت بالخطر يتهدد طفلها من فرعون وزبانيته فيجب أن تلقيه في النيل، ولكن كيف تلقيه وقد يغرق أو يهلك؟! هنا يأتي النهي عن الخوف والحزن، فالعناية الإلهية تكلؤه، ثم تأتي البشارة بعد ذلك بعودته إليها، وأنه سيكون له مستقبل باهر بحمل رسالة رب العالمين، لقد امتزج في هذه الآية الوحي بحديث النفس بالبيئة والواقع، حيث (أتى في هذه الآية الكريمة بأمرين ونهيين وخبرين متضمنين بشارتين في أسهل نظم وأحسن لفظ وأوجز عبارة، ولم يخرج عن الحقيقة في شيء من ذلك)[89]

المثال الثاني: نموذج من قصة موسى أيضا: قال تعالى: (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) (طه:40)، في هذه الآية وصف مختصر لحياة الرسول موسى عليه السلام من المهد إلى حين أتته الرسالة، ويظهر فيها عناية الله سبحانه، حيث رده إلى أمه، فهدأت وفرحت، ثم قتل نفسا بالخطأ فأذهب الله عنه الغم من فعل ذلك، ثم يذكره بجملة أحداث منَّ الله عليه بتجاوزها، وذلك في قوله: (وفتناك فتونا). قال الزمخشري في تفسير الآية: (سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضي الله عنه، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة، ولد في عام كان يقتل فيه الولدان، فهذه فتنة يا ابن جبير، وألقته أمه في البحر، وهم فرعون بقتله، وقتل قبطيا، وأجر نفسه عشر سنين، وضل الطريق، وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة: فهذه فتنة يا ابن جبير. والفتنة: المحنة، وكل ما يشق على الإنسان، وكل ما يبتلي الله به عباده فهو فتنة)[90]. واضطر للهرب باتجاه مدين، وفي طريق عودته منها تأتيه الرسالة في طور سيناء، ويظهر من خلال هذه الآية تداخل الأحداث المتتابعة مرفقة بعناية الله تعالى، مع تصوير ما في نفس موسى عليه السلام بأبلغ عبارة وأوجزها.

المثال الثالث: نموذج من وصف المعارك الإسلامية، قال تعالى: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ

---

[89]- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حفني شرف، ص (469).

[90]- الكشاف للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (64/3).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (آل عمران:154)، هذه الآية في وصف مشهد من مشاهد معركة أحد، وكانوا قد أثخنتهم الجراح، فأراد الله تعالى أن يخفف عنهم، فألقى عليهم النعاس فناموا، قال ابن مسعود: (النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان) [91]، ولكن المنافقين لم يغمض لهم جفن، فهم في خوف وقلق وفزع، يظنون بأن الله لن ينصر نبيه، وأنه سيخذله، ويتساءلون فيما بينهم عن كثرة الشهداء من المسلمين في تلك المعركة، فيفضح الله ما في نفوسهم، ويبين أن ذلك كله بعلمه وأمره وقدره، ليميز الخبيث من الطيب، والمسلم والمنافق، وهو العليم بكل شيء سبحانه وتعالى. هكذا تداخلت في هذه الآية الأحداث مع ما يصاحبها من أقوال وتفسيرات مع خطرات الأذهان وخلجات النفوس، وهذا من عظمة التعبير القرآني وديناميكيته أن تتداخل في آية واحدة أمور كثيرة، مما يجعل العقل ينتبه، والفكر يبحث وراء كل كلمة من هذه الآية وما تؤديه من دلالات خلال السياق.

المثال الرابع: نموذج من وصف القرآن للحياة الدنيا، قال تعالى:(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) (الكهف:45). هذه هي حقيقة الحياة الدنيا التي يحبها الناس ويقتتلون عليها، ماء عذب طهور ينزل من السماء، فتشربه الأرض وتنبت به الكلأ والعشب، وما هو إلا وقت يسير حتى ييبس بعد ذلك ويتحطم ويتناثر مع هبوب الرياح، وكل ذلك يحصل بأمره وقدرته عز وجل. وهذا المثل ينقلك عبر رحلة الماء بالطبيعة من البداية إلى النهاية، وهكذا أيضا رحلة الإنسان مراحل سريعة التبدل والتغير سرعان ما تنتهي وتتلاشى، وفي ذكر الماء دون غيره لأنه إكسير الحياة، وتتوق إليه النفوس، وفي ذكر الهشيم إشارة إلى الفناء المطلق الذي يعقب النمو والخضرة والازدهار الذي تقر به عين الإنسان، لقد نقلت الآية أفكارنا وأخيلتنا لتتبع حركة الماء بين السماء والأرض ونتيجة تلك الحركة، مراعية ما في نفوسنا من حب للحياة كحبنا للماء، وكاشفة لنا عن المصير المشترك للماء والحياة معا! إنه تعبير معجز تمتزج فيه مشاعر الإنسان بأحداث الطبيعة لتطل عليه الحقيقة المطلقة بعد ذلك: (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً).

---

[91]- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (329/1)، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، 1402هـ/1981م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المثال الخامس: وصف للصراع على وجه الأرض بين الإيمان والكفر في النفس والمجتمع على حد سواء، قال تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) (الرعد:17). هنا وصف لأحداث الحياة في مجملها وهي صراع بين الحق والباطل، والقيمة في النهاية للحق، وإن علا الباطل فوقه إلى حين، والعجيب أن تبدأ الآية وكأنها تتحدث عن مشهد من مشاهد الطبيعة، أو مشهد من مشاهد البيئة الصناعية في الحياة، فهذا ماء يتزل من السماء، فيأخذ كل واد بحسبه، وتسيل الأودية بهذا الماء العذب، ويعلوه زبد راب (أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الودية زبد عال عليه) [92]، وصورة الزبد الذي يكون فوق الماء هي نفسها صورة الزبد الذي يكون فوق الذهب والفضة، أو الحديد والنحاس ونحو ذلك، ثم تكون النتيجة أن الزبد يذهب ويتفرق في أطراف الوادي، وكذا خبث المعادن يذهب ولا يبقى إلا المعدن الذي ينتفع به، وتأتي بعد ذلك نقلة جديدة في سياق الآية: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) فالآية لم تكن لتتحدث عن حدث كوني ما لم تربطه بالدعوة والواقع: هذا هو حال الحق والباطل، يلتقيان ويتصادمان، فيندثر الباطل العالي المنتفش، ويبقى الحق الذي ينفع الله به الناس صامدا في الأرض، سواء كان هذا على صعيد الفرد أو الجماعة، حيث ورد عن ابن عباس قال: (هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه عمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله) [93]

المثال السادس: وصف لنفسية الملائكة، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:30)، فها هنا نفوس مطهرة لا تحب إلا التحميد والتقديس، فهي تحاور ربها بشأن هذا الخليفة، ويأخذها التعجب: كيف يكون خليفة يفسد ويقتل؟! فيرد الله عن تساؤلها بعلمه المحيط، فلو كان هذا شأن الخليفة لما استحق هذا الاسم، ولكن الله عز وجل يعلم أنه سيرسل رسلا، ويجعل من البشر شريحة صالحة تسبح له، وقد تكون عنده كالملائكة أو أقرب، وهذا ما لم يدر في خلد الملائكة يوما، حين رسموا صورة مظلمة لهذا

92- المرجع السابق، (276/2).

93- المرجع السابق، (277/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخليفة وهم لا يعلمون أن هنالك صورة مشرقة أيضا بعلم الله وبهذا يكتمل مشهد الخلفاء، فمنهم شقي ومنهم سعيد.

المثال السادس: وصف من قصة مريم، قال تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (آل عمران:45)

المثال السابع: وصف وتحليل لنفسية المرأة، قال تعالى: (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلِيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ) (يوسف:31-32)،. ها هنا امرأة تفتن بجمال فتاها، وتراوده، فيأبى، وينتشر الخبر بين الناس، فتريد أن تبرر عملها، فتقوم بتجربة ذكية، فتعد لهم مجلسا وطعاما يحتاج أن يقطع بالسكين، وتأمره بالخروج عليهن، فيشدهن بجماله، وتذهب السكاكين بشكل لا شعوري لتقطع الأيادي بدلا من الثمرات، إنه الجمال الذي يذوب أمامه الإحساس بالذات، ويفقد المرء نفسه في محرابه، فتجد بفعلهم امرأة العزيز مبررا لفعلها، فتعلن بصفاقة أنها ستعاقبه أشد العقاب، وستذله وتهينه إذا لم يطاوعها في ما تريد. لقد رسمت الآيتان هنا صورة متكاملة لمشاعر الأنوثة الصارخة في متحف الجمال، وهذا لعمرو الله هو السحر الحلال الذي لا يستطيعه أديب ولا شاعر مهما أوتيا من قوة الخيال ودقة الوصف وحسن التعبير، وكفاك بهذين الآيتين دليلا على إعجاز الكتاب المبين.

والخلاصة هي أن القرآن الكريم كتاب له من قدرة التأثير في النفس البشرية وتهذيبها وتعليمها وتقويمها وتوجيهها وكشف عوارها وضعفها في حالة الكفر والنفاق، وبيان قوتها وسموها في حالة الإيمان، واستجاشتها ودفعها في دروب الخير، له في هذا كله ما ليس لكتاب غيره، وكفى بهذا معجزة ودليلا حسيا ساطعا على أنه من لدن حكيم خبير.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الرابع:

ديناميكية البعد الزماني والحركة الكونية

هنالك بعدان لأي حدث، بعد زماني وبعد مكاني، وقد تعامل معهما القرآن بمستوى معجز، ونبدأ بالحديث في هذا المبحث عن البعد الزماني، وأول ما يلحظه المرء أن للقرآن منهجا عجيبا في التعامل مع عنصر الزمان فهو يتحرك في سائر الأزمنة دون كلل أو خلل، وينقل الأحداث من الماضي إلى المضارع وكأنها شاخصة أمام العين تتحرك، ومن المستقبل إلى الماضي وكأنها قد تحققت، وهذا من روعته وجلال أسلوبه، وسنتناول في هذا المبحث الفقرات التالية:

أولا: ما جاء ذكره من مفردات الزمان.

في القرآن الكريم ذكر للوقت وأجزائه ابتداء من الساعة ومروا باليوم والشهر والسنة وانتهاء بالدهر، ونظرة فاحصة لما ورد في القرآن الكريم في هذا الصدد نجد عجبا، حيث وردت مفردات الوقت جميعا، فقد ورد معنى الثانية (كلمح بالبصر) مرتين، ووردت مادة ساعة (48) مرة، ومادة يوم (474) مرة، وليل ومشتقاتها (93) مرة، ونهار ومشتقاتها: (57) مرة، والفجر: (6) مرات، والصبح(5) مرات، والظهيرة مرة واحدة، والعصر مرة واحدة، والغروب: مرتين، والعشاء ومشتقاتها: (13) مرة، وذكر السبت (7) مرات، والجمعة مرة واحدة، وكلمة شهر (21) مرة، وكلمة سنة(7) مرات، وسنين (12) مرة، وعام (8) مرات، وعامين مرة واحدة، ودهر مرتين.[94]

ثانيا: تحديد أوقات العبادات.

للصلاة أهمية خاصة كونها عماد الدين من جهة، وكونها عمل يومي يتكرر خمس مرات في اليوم والليلة من جهة أخرى، وقد رد التنبيه على أوقات الصلاة مجملة، قال تعالى: (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)(النساء: من الآية103)، ووردت أوقات الصلاة على التفصيل كما أشرنا مسبقا، كما ذكر وقت زكاة المزروعات وهو عند الحصاد، قال تعالى: (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)(الأنعام: من الآية141) وذكر وقت الصوم، قال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ

---

94 – انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، المواد: (سوع، يوم، ليل، نهر، سبت، جمع، شهر، سنن، عوم، دهر)، المكتبة الإسلامية، إستانبول، 1984م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:185). وورد ذكر أشهر الحج، قال تعالى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ)(البقرة: من الآية197)، والأشهر الحرم منصوص عليها أيضا، قال تعالى:(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (التوبة:36).

ثالثا: ما جاء ذكره مصحوبا بالعدد

قد تذكر الأيام والشهور والسنين مصحوبة العدد وهذا من دقة أسلوب القرآن، وسنقدم بعض النماذج التي تثبت هذا، فمن الأيام على سبيل المثال ورد ذكر ثلاثة وعشرة، وذلك عند قوله تعالى في شأن المتمتع الذي لا يجد هديا: (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)(البقرة: من الآية196)، وورد ذكر ثلاثة مستقلا عند قوله تعالى في شأن كفارة الأيمان: (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ)(المائدة: من الآية89)، وورد ذكر ستة في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)(الأعراف: من الآية54)، وجاء ذكر أربعين ليلة في قوله تعالى: (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)(البقرة: من الآية51). ومن الشهور جاء ذكر شهرين في كفارة القتل الخطأ، قال تعالى: (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ)(النساء: من الآية92)، وجاء ذكر ثلاثة في قوله تعالى: (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ)(الطلاق: من الآية4)، وجاء ذكر أربعة في قوله تعالى: (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:226). وجاء ذكر ثلاثين شهرا وأربعين سنة في آية واحدة، قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الأحقاف:15)، كما ورد ذكر الأربعين في قوله تعالى: (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً)(المائدة: من الآية26)، وورد ذكر الألف في قوله تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ)(البقرة: من الآية96)، وقال أيضا: (وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)(الحج: من الآية47)، وورد ذكر خمسين ألف سنة، وهو أكبر رقم يذكره الله عز وجل، قال تعالى: (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج:4)، وورد ذكر الدهر، قال تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مَذْكُوراً) (الإنسان:1)، والدهر في اللغة: (اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه).[95]

وورد ذكر العام، قال تعالى في قصة يوسف: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) (يوسف:49). وورد ذكر مئة عام، قال تعالى في قصة العزير: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَه)(البقرة: من الآية259)، وورد ذكر العام والسنة معا في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (العنكبوت:14)، والفرق بين العام والسنة أنه (كثيرا ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الشدة والجدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة، والعام بما فيه الخصب والرخاء).[96]

هكذا يدور الزمان بأجزائه الصغير والكبيرة في آيات القرآن الكريم، وكأنه تقويم أبدي للعالم كله، وما قدمناه مجرد نماذج، والتفصيل يحتاج إلى مجلدات.

رابعا: دقة الوقت كما عبر عنها القرآن

لدقة الوقت عناية قرآنية فائقة، تبدأ عندما ذكر الله عز وجل أن للأمم آجالا كما للأفراد، وهي ذات توقيت لا تتخلف عنه ولا تغادره، قال تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) (لأعراف:34)، ولذلك ينبغي الامتثال لأمر الله وحكمته، وعدم الاستعجال لقدره، قال تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) (الأحقاف:35)، والله تعالى يصرف أمور عباده من خلال دورة الأيام، قال تعالى: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (الرحمن:29)، وهو لا يغفل ولا ينام عن كونه وعباده، (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)(البقرة: من الآية255)، وقد ضبط حركة الجرام السماوية فهي تسير بانتظام، قال تعالى: (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يّس:40)، وقد اختص سبحانه بعلم الساعة فلا يعلم وقتها إلا هو، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (لأعراف:187).

---

[95]- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مادة (دهر)، دار المعرفة، بيروت.

[96]- المصدر السابق، مادة (عوم).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد بلغ من دقة القرآن في ذكر الوقت أن ذكر الفرق بين التوقيت الشمسي والقمري، قال تعالى في ذكر أهل الكهف: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً) (الكهف:25)، والمعنى أنه (كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة وازدادوا تسعا)[97]، كما أشار القرآن إلى التنافس في الوقت وسرعة الإنجاز في مملكة سليمان عليه السلام في قصة إحضار عرش بلقيس، حيث حصلت منافسة شديدة بين عفريت من الجن وبين من عنده علم من الكتاب، قال تعالى: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل:39-40).

خامسا: خصوصية بعض الأوقات.

ذكر الله عز وجل أوقات بعينها في القرآن الكريم، وسجلها تخليدا لذكراها، فمن ذلك قوله تعالى عن معركة بدر: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ)(لأنفال: من الآية41)، وقال تعالى يذكر معركة حنين: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)(التوبة: من الآية25).

وقد وقعت لإشادة بأوقات معينة، من ذلك ليلة القدر، قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (القدر:1-3)، وقال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) (الدخان:3). كما أقسم الله عز وجل بأوقات معينة تنبيها لفضلها وجلالها، فمنها الفجر، وليالي العشر الأولى من ذي الحجة، قال تعالى: (وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ) (الفجر:1-2). ومنها الضحى والنهار والليل مبتدئا بذكر مسبباتها وهما الشمس والقمر، قال تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) (الشمس:1-4).

سادسا: ما ورد بذكر اليوم الآخر

اليوم الآخر هو يوم الخلود الذي لا ينتهي، وبالتعبير الرياضي هو يوم اللانهاية، ولما كانت الدنيا محدودة، فإن قسمة المحدود على اللانهاية تساوي الصفر رياضيا، وهكذا تكون الدنيا لاشيء قياسا للآخرة، وهذا ما يقرره البشر أنفسهم يوم البعث مشيرين إلى ضآلة الحياة

---

[97]- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (415/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، قال تعالى: (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ) (المؤمنون:113)، وقال أيضا: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً) (طـه:104)

وعليه ينبغي أن يكون الحديث عن الآخرة والاهتمام بها هو محور حياة الإنسان، ولكن الحاصل هو العكس، بسبب سذاجة الإنسان وتمسكه بالمحسوس المباشر، قال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) (القيامة:20-21).

وقد سميت القيامة بأسماء كثيرة، فهي القيامة حيث يقوم الناس لرب العالمين، قال تعالى:(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (القيامة:1)، وهي الواقعة التي لا واقعة مثلها لما فيها من الشدة والمكروه، قال تعالى: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) (الواقعة:1)، وهي الغاشية أي النائبة التي تغشى الناس جميعا، قال تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) (الغاشية:1)، وهي يوم التغابن، حيث يظهر الغبن وهو (أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الخفاء)[98]، قال تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)(التغابن: من الآية9))مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة:4)، وهي يوم الوعيد بالعذاب الشديد، قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) (قّ:20)، وهي القارعة، والقرع: (ضرب شيء على شيء)[99]، فهي تقرع الأسماع والقلوب، قال تعالى: (الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) (القارعة:1-3)، وهي الحاقة التي يحق فيها الجزاء، قال تعالى: الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) (الحاقة:1-3). وهي يوم النشور بعد الموت، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (الملك:15)

وهي يوم البعث بعد الموت، قال تعالى: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (المجادلة:6). وهي أيام الله تعالى لما فيها من مشاهد مختلفة وعوالم متباينة كعالم العرض وعالم الحشر وعالم الميزان وعالم الصراط، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (إبراهيم:5)، وهي يوم الفصل الذي يحكم فيه بالعدل، قال تعالى: (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (الصافات:21).

---

[98]- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مادة (غبن).

[99]- المصدر السابق، مادة (قرع).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد حذر الله سبحانه من أهوالها التي تشيب لها الولدان، قال تعالى: (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) (المزمل:17)، ودع المؤمنين للاستعداد لها فهي المستقبل الذي يوجد غيره، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر:18)، وفيها الجنة التي وعدهم، قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران:133)، وفيها الخلود، قال تعالى: (ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) (قّ:34)، وأما النار فهي مثوى الخارجين عن منهج الله في الأرض، قال تعالى: (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (فصلت:28)، وطالما كانت النار موعدهم فلا فائدة لهم في ما هم فيه من قوة وسطوة، قال تعالى: (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (آل عمران:196-197).

سابعا: التعبير بالماضي عن المستقبل

من بلاغة العربية التعبير بالماضي عن المستقبل، وقد أشار إلى ذلك الخطيب القزويني في حديثه عن خروج المسند إليه عن مقتضى الظاهر، فذكر من صور الخروج: (التعبير عن المستقبل بلفظ المضي تنبيها على تحقق وقوعه، وأن ما هو للوقوع كالواقع)[100]، ومثاله قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) (النمل:87)، فقد عبر بفزع و لم يقل سيفزع، وقال أتوه و لم يقل سيأتوه، وكأن الأمر قد قضي وتحقق، ومن هذا الباب قوله تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) (الكهف:47)، فقال: وحشرناهم وكأن الحشر قد تم وهو يخبر عنه لا على أنه آت، ومن هذا الباب أيضا: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) (لأعراف:48)، فعبر بنادى لا بسينادي، لأن ما يعد الله به متحقق لا محالة فصار بمنزلة الماضي الذي تحقق، والأزمان عند الله جميعا وأمام قوته سواء.

ثامنا: التعبير عن المستقبل باسمي الفاعل والمفعول[101]

وهذا أيضا من بلاغة العربية، فقوله تعالى: (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) (الذريات:6)، فقد قال واقع و لم يقل يقع، والجملة الاسمية تفيد الثبوت، وكأن يوم الدين قد وقع فعلا، ومنه قوله

---

[100]- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، (164/1).

[101]- المصدر السابق، المصدر السابق، (165/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) (هود:103)، فقال مجموع و لم يقل يجمع وكأن حدوث الجمع ثابت لا ريب فيه.

تاسعا: الإخبار عن القرون الماضية

وهذا أحد وجوه الإعجاز، وقد ذكره السيوطي فقال: (الوجه التاسع عشر من وجوه إعجازه: إخباره بأحوال القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك)[102]، ومعلوم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أميا، فمن أين له هذا العلم لولا أن الله علمه؟ والقرآن في الإخبار عن الماضي سجل حافل لتجارب البشرية في الخير والشر من خلال قصص الأنبياء مع أقوامهم، وهو يتحرك في الماضي من أجل بناء المستقبل، لا رغبة في السرد والإمتاع، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف:111).

عاشرا: الإخبار عن المستقبل

وهذا أحد وجوه الإعجاز، وقد ذكره السيوطي فقال: (الوجه الثامن عشر من وجوه إعجازه: انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر)[103]، والقرآن الكريم كتاب مستقبلي بالكامل، تحدث عن المستقبل البعيد ممثلا بيوم القيامة، والمستقبل القريب، ممثلا بالدنيا، وذكر نبوءات عن مستقبل الأمم والشعوب مما يندرج ضمن البشارات المستقبلية، قال تعالى مبشرا بنصر قريب للروم بعد هزيمتهم: (غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) (الروم:2-3)، وقال مبشرا بفتح مكة: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) (الفتح:1)، وقال مبشرا بغلبة هذا الدين وتمكينه في الأرض: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة:33)، وقد تحقق كل ما وعد الله به. كما تحدث القرآن عن مستقبل العمل والسعي، قال تعالى: (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (النجم:39)، وحث على العمل والمبادرة، قال تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة:105)، وكان حديثه عن قصص الأنبياء والأمم السابقة بقصد الإفادة من

---

[102] - معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين (181/1).

[103] - المصدر السابق، (180/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تجاربهم في صناعة المستقبل، قال تعالى: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة:134)، وليس حديثه عن قصص الطواغيت والجبارين إلا بقصد العبرة والاتعاظ، قال تعالى في قصة غرق فرعون وحكمة بقاء بدنه: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) (يونس:92)

إحدى عشرة: ديناميكية الزمان

ونعني بها حركته بين الأزمنة الثلاثة (الماضي، الحاضر، المستقبل)، مما يثير الشعور بوحدة الزمان، فكأن المرء يعيش في كل الأزمنة في وقت واحد.

بداية لنتأمل قوله تعالى: (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً) (النساء:102). إن الفعل كنت ماض، ولكن إذا أخلصته للاستقبال، ثم عطف بالفاء التي تفيد التعقيب مع الترتيب فقال: (فأقمت)، و لم يقل فأقم، فسارت الجملة الثانية في إطار الخبر؛ لتتحول بعد ذلك للإنشاء: (فلتقم) وهو أمر للمستقبل، ومثله (فليأخذوا)، ثم تعود الآية إلى ذكر الماضي الذي يراد به المستقبل: (فإذا سجدوا)، ثم إلى الأمر الذي يراد به المستقبل: (فليكونوا). ثم تأتي الأفعال: (ولتأت) وهو أمر، و (لم يصلوا) وهو مضارع مجزوم، و(فليصلوا) وهو مضارع مجزوم بلام الأمر، ومثله: (وليأخذوا) ثم عودة للماضي: (ودَّ) الذي يفيد أن هذه الرغبة قديمة وباقية لدى الكافرين، ثم يعقب ذلك الفعل(كفروا) وهو ماض، ثم: (لو تغفلون) وهو مضارع يجعل المرء يتيقظ لما هو قائم حوله، ثم أعقبه (فيميلوا) وهو مضارع أيضا واقع في جواب التمني، ثم عودة إلى الماضي المشروط: (إن كان بكم) ويعقبه جوابه وهو المضارع المنصوب: (أن تضعوا)، ثم يلي ذلك الأمر الجامع: (وخذوا حذركم). ثم تختم الآية بالجملة الاسمية: (إن ال أعد للكافرين عذابا مهينا) وهي هنا خبر يفيد ثبوت العذاب للكافرين، وقد تضمنت الجملة الاسمية جملة فعلية وهي (أعد) وهي خبر (إن) وجاء بصيغة الماضي الذي يراد به الوعيد... عملية بناء لغوية معقدة، تتداخل فيها الأزمنة جميعا في سياق آية واحدة، وهذا هو السحر الحلال الذي لم يجتمع قط لغير كلام السميع العليم.

ولنتأمل أيضا قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة:3) ابتدأ بالماضي المبني للمجهول: (حرمت) وعطف عليه: (وما أهل)، ثم ذكر الماضي: (أكل) و (ذكيتم)، ثم الماضي المجهول: (وما ذبح) ثم ذكر المضارع المنصوب بأن (وأن تستقسموا)، ثم ذكر الفعل الماضي (يئس)، ومثله (كفروا)، ثم ذكر المضارع المجزوم بلا الناهية: (فلا تخشوهم) ثم الأمر: (واخشون)، ثم الماضي: (أكملت) و (أتممت) و (رضيت)، ثم الماضي (اضطر)، وختم بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت ولاستمرار: (فإن الله غفور رحيم). فتنقل بين أزمنة مختلفة في سياق آية واحدة!

ولنتأمل كذلك قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء:1). فقوله (سبحان) علم للتسبيح نزل منزلة الفعل، ثم جاء (أسرى) و (باركنا) بصيغة الماضي، وقوله: (لنريه) مضارع منصوب بلام التعليل، وقوله: (إنه هو السميع البصير) جملة اسمية ختمت بها الآية.

وهكذا نجد عملية ديناميكية في استخدام الأفعال في أزمنتها المختلفة بما يجعل النص حيا شاخصا يفيض بالتجدد والحياة.

والخلاصة هي أن الزمان كله مسخر للإنسان، وكذلك أدواته من أجرام نيرة، قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) (إبراهيم:33)، وعلى المرء أن يتوب ليمحو الماضي وينطلق إلى المستقبل، قال تعالى: (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة:39).. وعليه أن يبادر هذا العمر قبل أن يضيع وينتهي، قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران:133)، وقد وظفت كل الآيات التي ذكر فيها الوقت لهذا الغرض العظيم الذي ذكرناه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الخامس:

ديناميكية البعد المكاني

يحتل البعد المكاني المرتبة الثانية في الحياة الإنسانية وأحداثها، وكان للآيات القرآنية، عناية خاصة بهذا البعد، حيث ينقلك القرآن بين مختلف الأمكنة وكأنها مكان واحد، كما ينقلك بين مختلف الأزمنة وكأنها زمان واحد، ومن ثم فهو يتحرك ضمن الأحداث الماضية والمستقبلية والأماكن المختلفة في شتى بقاع الأرض وفي جميع أجرام الكون في آن واحد، كما لو كانت الأحداث جميعا تجري أمامك على خشبة المسرح، فهو ينقل لك الزمان والمكان ليجعلهما وحدة واحدة ضمن ديناميكية عجيبة لم تجتمع لكتاب غير القرآن الكريم، ونستطيع أن نلمس في هذا المبحث من الحقائق ما يلي:

أولا: ما جاء ذكره من الأجرام العلوية

الأجرام العلوية النيرة التي يراها الإنسان آية من آيات الله سبحانه، وقد ذكر الله تعالى من أجرام السماء: الشمس والقمر، قال تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (الرحمن:5)، وذكر الطارق وهو النجم الذي يطرق بالليل، قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ) (الطارق:1-3)، وذكر الشعرى وهي نجم كان يعبده قوم من العرب، قال تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)، (النجم:49). كما ذكر النجوم عامة قال تعالى: (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ)(الأعراف: من الآية54). وذكر الكواكب، قال تعالى: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) (الصافات:6). وذكر البروج وهي: (القصور، الواحد منها برج، وبه سمي بروج النجوم لمنازلها المختصة بها) [104]، قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) (البروج:1).

ثانيا: المذكور من البلاد والبقاع والأمكنة والجبال

اقتضت حكمة الله عز وجل أن يذكر أسماء بعض البلاد والبقاع والأمكنة والجبال في كتابه العزيز، وسنوجز ذكرها:

1-مكة، وتسمى أيضا: بكة، وأم القرى، والبلد الأمين، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ)(الفتح: من الآية24). وقال تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ) (آل عمران:96). وقال تعالى:

---

[104]- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مادة (برج).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)(الأنعام: من الآية92). قال تعالى: (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (التين:3).

2- المدينة، وكانت تسمى بيثرب، قال تعالى: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)(التوبة: من الآية120). وقال تعالى: (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا)(الأحزاب: من الآية13).

3- بدر، وهي قرية قرب المدينة، قال تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (آل عمران:123).

4- أحد، قال تعالى: (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ)(آل عمران: من الآية153). وفي قراءة شاذة: (عن أحد).

5- حنين: قرية قرب الطائف، قال تعالى: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)(التوبة: من الآية25).

6- جمع: مزدلفة، قال تعالى: (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) (العاديات:5)، والمشعر الحرام وهو جبل بها، قال تعالى: (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ)(البقرة: من الآية198)

7- ونقع: قيل هو اسم لما بين عرفات إلى مزدلفة، قال تعالى: (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) (العاديات:4)

8- مصر، قال تعالى: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) (يوسف:99)

9- بابل، بلد بسواد العراق. قال تعالى: (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ)(البقرة: من الآية102)

10- الأيكة: بلد قوم شعيب. قال تعالى: (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ) (الحجر:78).

11- مدين، قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً)(لأعراف: من الآية85)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

12- الحجر: منازل ثمود ناحية الشام عند وادي القرى. قال تعالى: (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) (الحجر:80).

13- الأحقاف: جبال الرمل بين عمان وحضرموت. قال تعالى: (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ)(الأحقاف: من الآية21)

14- طور سيناء: الجبل الذي نودي به موسى. قال تعالى: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ) (المؤمنون:20).

15- الجودي: جبل بالجزيرة. قال تعالى: (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي)(هود: من الآية44)

16- طوى: اسم الوادي. قال تعالى: (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً) (طه:12).

17- الكهف: هو البيت المنقور في الجبل. قال تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً) (الكهف:9).

18- الرقيم: واد بين عقبان وأيلة دون فلسطين كما قال ابن عباس.

19- العرم: اسم الوادي، قال تعالى: (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)(سبأ: من الآية16).

20- حرد: اسم القرية كما ذكر السدي، قال تعالى: (وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ) (القلم:25)

21- ق: اسم جبل محيط بالأرض[105]، قال تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (قّ:1)

22- الجرز: اسم أرض. قال تعالى: (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً) (الكهف:8).

23- الطاغية: قيل اسم البقعة التي أهلكت بها ثمود. قال تعالى: (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) (الحاقة:5)[106].

24- وفيه أيضا من المواضع دون تحديد: مطلع الشمس، قال تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً) (الكهف:90).

---

[105] - انظر: عجائب المخلوقات، للقزويني، (276/1)، دار الفكر، بيروت.

[106] - انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (182/2-1183).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

25- وفيه أيضا ذكر لمغرب الشمس، قال تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ)(الكهف: من الآية86).

26- وذكر أيضا: بين السدين، قال تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً) (الكهف:93).

27- وذكر أيضا: مجمع البحرين: قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً) (الكهف:60).

28- وذكر المسجد الأقصى وما حوله، قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء:1).

29- وذكر الغار الذي يقع في جبل ثور بمكة، قال تعالى: (إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)(التوبة: من الآية40).

30- وذكر عرفات في قوله تعالى: (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ)(البقرة: من الآية198).

31- ذكر الصفا والمرة في قوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)(البقرة: من الآية158)

وهذه الأماكن المذكورة منها لما هو في داخل جزيرة العرب ومنها ما هو في خارجها، ومنها ما هو موقع قبلة أو معركة أو عذاب أو قوم أو بلد، ومنها ما هو محدد كالكهف أو غير محدد كمطلع الشمس ومغربها، وهكذا فلا نكاد نجد شيئا من الأماكن إلا وله ذكر في القرآن، فكأنه قد ذكرها جميعا.

ثالثا: ما تكرر ذكره من الأماكن

من الأماكن ما ذكر أكثر من مرة في القرآن الكريم، وذلك مما تقتضيه أغراض القرآن أو سياق الموضوع الذي يتناوله، فمن ذلك على سبيل المثال: السماء (120) مرة، السماوات بالجمع: (190) مرة، الأرض: (461) مرة، الشمس: (33) مرة، القمر: (27) مرة، نجم (13)، كوكب (5) مرات، بحر ومشتقاتها (41) مرة، نهر ومشتقاتها (54) مرة، ساحل: مرة واحدة، شاطئ: مرة واحدة، جبال (39) مرة، واد (10) مرات، بلد ومشتقاتها: (19) مرة، قرية ومشتقاتها: (56) مرة، مدينة: (14) مرة، مدائن (3) مرات، مدين (10) مرات، مصر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(5) مرات، مكة مرة واحدة، بكة مرة واحدة، ومن أسماء المغيبات: جنة ومشتقاتها (150) مرة، جهنم (77) مرة، النار (145) مرة)[107]

رابعا: ما نسب في القرآن إلى الأماكن

وقعت النسبة إلى المكان في القرآن خمسة مرات، وقد ذكرها السيوطي فقال: (وفيه من المنسوب إلى الأماكن: الأمي: قيل إنه نسبة إلى أم القرى، وعبقري: قيل إنه منسوب إلى عبقر، موضع للجن ينسب إليه كل نادر، والسامري: قيل منسوب إلى أرض يقال لها سامرون، والعربي: قيل منسوب إلى عربة، وهي باحة دار إسماعيل عليه السلام)[108]

خامسا: ما أقسم الله به من الأماكن

نظرا لشرف المكان وأهميته فقد أقسم الله به، فمن ذلك قسمه بالشمس وهي جرم والضحى وهو زمن ناتج من فعلها، قال تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (الشمس:1)، ثم قسمه بالقمر، قال تعالى: (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا) (الشمس:2)، ثم قسمه بالسماء وذاته العلية التي بنت السماء، قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا) (الشمس:5)، ثم قسمه بالأرض وذاته التي مهدها، قال تعالى: (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) (الشمس:6). كما أقسم ببعض النجوم، من ذلك الطارق الذي يطلع ليلا، قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) (الطارق:1)، وقسمه بالنجم الذي ينقض ويهوي، قال تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) (النجم:1)، كما أقسم قسما عظيما بمواقع النجوم في السماء، قال تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (الواقعة:75-76)، كما أقسم ببيت المقدس وما حوله من شجر التين والزيتون، قال تعالى: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) (التين:1)، وأقسم بطور سيناء، قال تعالى: (وَطُورِ سِينِينَ) (التين:2). وأقسم بمكة، قال تعالى: (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (التين:3)، وقال: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) (البلد:1)

وأقسم قسما جامعا بما تمتد إليه عين الإنسان من مكان وما يحتويه ذلك المكان، قال تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لا تُبْصِرُونَ) (الحاقة:38-39). والقسم بالمكان دليل على حرمته وأهميته وشرفه، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس للعباد إلا أن يقسموا به وحده لأنه خالق الحدث والزمان والمكان وهو السميع العليم.

سادسا: ما ورد فيه من أسماء الأماكن الأخروية

---

[107] – انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، المواد: (سمو، أرض، شمس، قمر، نجم، كوب، بحر، نهر، شطأ، سحل، جبل، واد، قرى، مدن، مكة، بكة، جنن، جحم، نار).

[108] – الإتقان في علوم القرآن، (1183/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تقتضي عملية التربية الإيمانية ذكر الترغيب والترهيب بشكل متكرر في القرآن الكريم ولكن بأساليب مختلفة حتى لا يقع السأم لدى القارئ، وهذا من مزايا القرآن الكريم وحيويته، فذكر الجنة يولد دافعية في نفس المؤمن من أجل العمل والتشمير لها، وذكر النار يولد إحجاما ورهبة تحجز المرء عن فعل المعاصي والآثام، فتجد المؤمن بين رغبة ورهبة، وأمل وخوف، في عملية لا تنتهي مادام مصاحبا للقرآن الكريم، ومن أجل خلق هذه الحيوية في نفس المؤمن ورعايتها عند التلاوة؛ وردت في القرآن الكريم كثير من الأسماء الأخروية التي تشمل الجنة أو النار، وقد جمعها السيوطي فقال: (وفيه من الأسماء الأخروية: الفردوس، وهو أعلى مكان في الجنة، وعليون، قيل هو أعلى مكان في الجنة، وقيل: اسم لما دون فيه أعمال صالحي الثقلين. والكوثر، وهو نهر في الجنة. وسلسبيل وتسنيم: عينان في الجنة. وسجين: اسم لمكان أرواح الكفار. وصَعود: جبل في جهنم، كما أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعا. وموبق، وغي، وويل، والسعير، وسائل، وسُحق: أودية في جهنم)[109]. وقد فات السيوطي ذكر الأعراف، وهو (سور بين الجنة والنار)[110].

سابعا: استيعاب القرآن للبعد المكاني

من مزايا القرآن الكريم أنه استوعب جميع الأمكنة التي خلقها الله تعالى، فمنها ما جاء مصرحا به، ومنها ما يدخل ضمن غيره على وجه الإجمال، فلفظ الجبال يعم جميع الجبال عندما تكون (أل) فيها للجنسية، ولفظ البحر يشمل كل بحر، ولفظ الأنهار كذلك، ومن ثم فما من مكان إلا وله ذكر بالتفصيل أو إشارة على وجه الإجمال، فمن ذلك:

1- ذكر كثير من الأماكن التي تتعلق بمكة المكرمة

2- ذكر كثير من الأماكن التي تتعلق بالكافرين في الجزيرة العربية

3- ذكر كثير من الأماكن التي تتعلق بالأقوام الكافرين والأنبياء والمرسلين خارج الجزيرة العربية، وبخاصة فلسطين ومصر والشام والعراق.

4- ذكر كثير من الأماكن التي تتعلق بالكرة الأرضية مثل مشرق الشمس ومغربها.

5- ذكر أماكن في الأرض مثل الكهف، و لم يحدد موقعه.

6- ربط بين بعض هذه الأماكن كالسماوات والأرض، والشرق والغرب، كما ربط بين بعض المساجد كما في سورة الإسراء.

---

[109] - معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين (1/385-386).

[110] - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مادة (عرف).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

7- ذكر كثير من الأماكن الأخروية في دار النعيم ودار الجحيم.

8- أقسم الله تعالى ببعض الأمكنة تنبيها على حرمتها وشرفها.

9- بين أن الأماكن تسجد لله بما فيها من العاقل وغيره، قال تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) (النحل:49)، وقال أيضا: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (الحج:18)

10- بين وحدة الزمان والمكان في عملية السجود، قال تعالى:)وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (الرعد:15)،

ثامنا: حركة المكان والزمان

تبدو الحركة الكونية في القرآن متميزة عن ما سواها مما قد يرد في أساليب البيان المنثور والمنظوم، وهذا أحد دلائل إعجاز الكتاب الحكيم، ويبدو ذلك خلال تنقله في الحديث بين أماكن متباعدة في وقت واحد، مما يحرك ذهن الإنسان نحو شتى بقاع المعمورة، وأجرام الكون وعالم الغيب كالجنة والنار، فكأنه موجود في كل مكان.

فمن مشاهد حركته بين مظاهر الكون وأجرامه قوله تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (الرعد:15)، هنا استخدم (من) وهي للعقلاء، فكل عاقل يسجد لله هو وظله إن شاء طوعا أو كرها مرتين في الغدو وهو أول النهار والآصال عند الغروب، وفي سياق آخر يستخدم الأداة (ما) المخصصة لغير العاقل، قال تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) (النحل:49)، وفي سياق آخر يستخدم من ثم يعطف عليها غير العاقل والعاقل، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (الحج:18)، فلنا أن نتصور هذا الكون وأجرامه وما فيه من مخلوقات حية تسجد جميعا لله ضمن مشهد متكرر لا ينتهي، ومع هذا السجود المتواصل والمتكرر في الغدو والآصال في كل موقع من مواقع الكون يبدو الكون وكأنه معبد كبير يسبح لله بكل ما فيه، وهي صورة فيها من القداسة والحركة والانسجام والحركة ما يشبع خيال المؤمن ويجعل روحه ترفرف شوقا نحو خالقها الكبير سبحانه وتعالى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن مشاهد ربط حركة الإنسان في هذا الكون بين مكانين متباعدين في وقت قياسي رحلة الإسراء، والربط بينهما في آية واحدة، قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء:1)

ومن مظاهر الربط بين أماكن العبادة والزمان وحركة الإنسان قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ) (البقرة:198)

ومن مظاهر الربط بين الأجرام المتباعدة ذكر السماء مع الأرض في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(البقرة: من الآية33). ومن ذلك ذكر الشمس مع القمر، قال تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (الرحمن:5). ومن ذلك ذكر السماء مع الأرض في سياق القسم، قال تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذريات:23)، وقد يقسم الله بالسماء والأرض كل على حدة، كما في قوله تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) (الشمس:5-6)

ومن مظاهر الربط بين أجزاء الأرض نفسها الربط بين المشرق والمغرب، قال تعالى: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) (المزمل:9). وهما مشرقان ومغربان بالنسبة للصيف والشتاء أو لمن هم شمال خط الاستواء وجنوبه، أو بالنسبة لمداري الجدي والسرطان، قال تعالى: (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) (الرحمن:17). وهي مشارق ومغارب مختلفة باعتبار تغير موقع الشروق ووقته من يوم لآخر، أو من بلد لآخر، فهي تشرق على عدد من البلدان معا وتغرب على عدد آخر معا، ومن ثم فهنالك مشارق كثيرة للأرض ومثلها مغارب، ولذا قال تعالى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) (الصافات:5)، وقال أيضا: (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ) (المعارج:40). وهذا الربط بين أقطار الأرض وأجزائها لا يتهيأ لأحد؛ فالأرض بكل أجزائها وحدة واحدة أمام الله، والبشر كنفس واحدة، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم مبعوث للعالمين، لذا قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) (الفرقان:1)

وخلاصة القول هنا إن مراعاة البعد المكاني في القرآن الكريم أمر قائم في كتاب الله تعالى، والتحامه مع البعد الزماني يجعل المؤمن وكأنه قائم في كل مكان وزمان، وهذا بحد ذاته أعظم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأدلة على صلاحية هذا القرآن لكل زمان ومكان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث السادس:

ديناميكية الحدث والحركة الاجتماعية

القرآن ليس كتابا فلسفيا جافا أو كتابا في العلوم البحتة لا يلامس واقع الناس، بل هو كتاب اجتماعي من الطراز الأول، وهو يرصد جميع التحركات الاجتماعية وملابساتها، وهو يتحرك في حياة الناس بأبعادها المختلفة، فكأنه يمشي معهم ويساكنهم في بيوتهم، ويلازم واقعهم، وهو كذلك سجل حافل لقصص الأنبياء مع أقوامهم وما رافق تلك القصص من عناء ومشقة في رحلة الدعوة إلى الله تعالى، وحين يعرض للأحداث التاريخية يذكرها كأنها حية، ويذهب عنها غبار التاريخ لتبدو وكأنها أحداث تتحرك أمام عيوننا، وسنذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يؤكد ذلك في ما يلي:

أولا: سجل القرآن الكريم مواقف من الحياة الخاصة للنبي عليه الصلاة والسلام

فذكر يتمه وطفولته، قال تعالى: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى) (الضحى:6). وذكر حيرته وهداه وهذا وصف لحياته النفسية، قال تعالى: (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) (الضحى:7)، وذكر فقره وغناه وهذا وصف لحياته الأسرية، قال تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) (الضحى:8). وذكر أميته وهذا وصف لحالته الثقافية، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)(لأعراف: من الآية157). وذكر عشيرته، قال تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (الشعراء:214)، وذكر قبيلته، قال تعالى: (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ) (قريش:1)، وذكر بلده، قال تعالى: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) (البلد:1-2)، وذكر زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها، قال تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً) (الأحزاب:37). وليس ثمة شيء ذا بال في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلا ونجد له ذكرا في القرآن الكريم.

ثانيا: رصد القرآن الكريم أحداث الصراع بين النبي عليه السلام وكفار مكة.

فأشار إلى سؤالهم للنبي عليه الصلاة والسلام عن القرآن، قال تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) (يونس:53)، وذكر استهزاءهم بالنبي عليه السلام عند رؤيته، قال تعالى: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء:36). وأشار إلى إكراههم بعض أصحابه ومنهم عمار بن ياسر كي يسبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (النحل:106). وذكر هجرته من بين أظهرهم ونصرة الله تعالى له، قال تعالى: (إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة:40).

ثالثا: رسم القرآن الكريم بناء دولة المدينة وما رافقه من أحداث.

ابتداء أشاد الله عز وجل بالأنصار الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين أحسن استقبال، قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:9). وذكر أهم الغزوات مثل بدر، قال تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (آل عمران:123). وذكر تغرير الشيطان بالمشركين في معركة بدر، قال تعالى: (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:48). وذكر أحد وما فيها من انتكاسة، قال تعالى: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران:165). وذكر غزوة الأحزاب قال تعالى: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) (الأحزاب:22)، وذكر غزوة حنين قال تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) (التوبة:25). وذكر فتح مكة، قال تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) (الفتح:27). وتحدث عن طابور المنافقين الذي هم بإخراج المهاجرين من المدينة، قال تعالى: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (المنافقون:8). وهنالك أحداث كثيرة مذكورة في القرآن رافقت نمو الدولة الإسلامية وتطورها في المدينة المنورة حتى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بلغ نورها مشارق الأرض ومغاربها.

رابعا: سجل القرآن الكريم الحوار التعليمي بين الرسول وأصحابه وما تخلله من أسئلة وأجوبة في شتى ضروب المعرفة وقضايا الحياة.

فمن ذلك سؤالهم عن الأهلة، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)(البقرة: من الآية189)، وكذلك سألوا عن الأشياء التي ينفقونها، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)(البقرة: من الآية215). وسألوا كذلك عن القتال في الأشهر الحرم، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)(البقرة: من الآية217). وسألوا عن الخمر والميسر، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (البقرة:219). وسألوا عن ما أحل الله لهم من الأطعمة، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (المائدة:4). وسألوا عن موعد القيامة، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الأعراف:187). وسألوا عن الأنفال، قال تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (لأنفال:1). وسألوا في المواريث، قال تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (النساء:176). وسألوا حتى عن الحيض، قال تعالى: (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة:222). هكذا كانت أسئلتهم تشمل عالم الغيب والشهادة ومشكلات الواقع وقضايا الدين جميعا، ولم يكونوا يخجلون من طرح أسئلتهم على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو مرجعيتهم الأولى والأخيرة، وهو الهادي لهم في شئون حياتهم كلها صغيرها وكبيرها صلى الله عليه وسلم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خامسا: سجل القرآن الكريم الحوار الدعوي بين الرسول والمشركين وبينه وبين أهل الكتاب.

فمن ذلك ذكره لموقف أحد المشركين المنكرين للبعث وهو أبي بن خلف الجمحي، الذي (أخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم، ويبعثك، ويدخلك جهنم) [111]. قال تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يّس:78). ومن ذلك دعوته بني إسرائيل إلى إحضار توراتهم لإثبات كذبهم، قال تعالى: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران:93). ومن ذلك دعوته نصارى نجران للمباهلة، قال تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (آل عمران:61). ومن ذلك حواره لأهل الكتاب في شأن إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إبراهيم وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْأِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (آل عمران:65). وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الصدد، مما يدل على حيويته وملامسته لواقع الناس الديني والفكري.

سادسا: سجل القرآن الكريم جوانب من الحياة الخاصة لبعض المؤمنين.

فمن ذلك حوار أسماء بنت عميس للنبي صلى الله عليه وسلم بشأن زوجها، قال تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (المجادلة:1). ومن ذلك إشارته إلى صهيب الرومي الذي قدم ماله كي تسمح له قريش بالهجرة، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) (البقرة:207). ومن ذلك إشارته لأبي بكر الذي كان ينفق على مسطح الذي قال بالإفك فآلى أبو بكر أن لا ينفق عليه بعدها، قال تعالى: (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور:22). وأثنى الله تعالى على عبد الله بن سلام وهو من أحبار اليهود وقد أسلم، قال تعالى: (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران:199). وأثنى على صفات الأبرار من عباده، قال تعالى: (وَيُطْعِمُونَ

---

[111] – الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (30/4).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) (الإنسان:8). قال الزمخشري في سبب نزولها: (كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين، فيقول: أحسن إليه. فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه. وعند عامة العلماء: يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام، ولا تصرف إليهم الواجبات. وعن قتادة: كان أسيرهم يومئذ المشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه)[112] وفي دراسة أسباب النزول نجد كثيرا من الآيات قد نزلت بسبب بعض المؤمنين، ولكن القرآن لا يذكر الأسماء على عادته، فالعبرة بالعمل والحادثة بغض النظر عن صاحبها، وهذا من ديناميكة القرآن حتى تعم ألفاظه كل من وافق ذلك العمل أو تلك الحادثة.

سابعا: سجل القرآن الكريم الحياة الاجتماعية للمجتمع المسلم

قال تعالى بشأن الأعراب من جفاة بني تميم الذين يجهلون أبسط الآداب العامة: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (الحجرات:4). وقال يحض المؤمنين على الأدب في بيت النبوة، وضرورة الانصراف بعد تناول الطعام: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً) (الأحزاب:53). وقال تعالى يذكر حادثة الإفك بالمدينة وما سببته من فتنة: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (النور:11). وقال تعالى يرد على اليهود بشأن عملية التناسل وهي أخص خصوصية في العلاقات الزوجية: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:223). وقد روي (أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته وهي مجيبة من دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كذبت اليهود، ونزلت)[113]، وقال تعالى بشأن من تخلفوا عن غزوة تبوك: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ

---

[112]- الكشاف، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (668/4).

[113]- المصدر السابق، (266/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) (التوبة:81). وإنك لن تجد كتابا يصور الحياة الاجتماعية بأدق تفاصيلها لمجتمع المدينة مثل القرآن الكريم، فهو كتاب الله إلى الناس، يتحرك معهم وبهم، ويعايشهم في حاضرهم ومستقبلهم، لأنه كتاب حياة وجد لكي يوحد الصفوف وينقذ المجتمعات ويقيم الأمة، لا ليوضع فوق الرفوف ويهجر كما فعل المتأخرون.

ثامنا: سجل الحياة الثقافية والعقدية والاجتماعية لكفار مكة والمدينة

العرب أمة وثنية، لا تؤمن بالبعث ولا الرسالات، وقد ذكر الله بعض آلهتهم التي كانوا يعبدونها، قال تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) (النجم:19-20). وقد نعى الله عليهم عبادة أوثان جامدة لا تتحرك ولا تشعر ولا تدرك ولا تتألم، فهي خالية من أي معنى من معاني الحياة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ) (لأعراف:194-195). وذكر الله عز وجل عقيدتهم بالملائكة، فزعموا أنها بنات الله سبحانه، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى) (لنجم:27). وأنكروا البعث، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (سبأ:7).

والإبل أموال العرب، وكانوا يتصرفون بها على غير ما يرضي الله تعالى، قال تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (المائدة:103). وكان كفار مكة (يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادهما كيفما كانت ذكور وإناثا، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون حرمها الله، فأنكر ذلك عليهم)[114] قال تعالى: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الأنعام:143-144). ووصف الله تعالى نفور بعضهم من الإناث، قال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) (النحل:58). ووصف سلوك المنافقين بالمدينة، قال تعالى: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا

---

[114]- الكشاف للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (74/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (البقرة:76). وإنك لن تجد مثل القرآن كتابا أمينا وسجلا حافلا لأحوال المشركين والمنافقين النفسية والخلقية والعقدية والاجتماعية من جميع جوانبها، بل ربما نقل أقوالهم كما هي، قال تعالى: (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ، أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (قّ:2-3). وهو باب واسع يدل على حيوية القرآن وقدرته على التعاطي مع الآخر أيا كانت عقيدته ووجهته، وهذه غاية العدل والإنصاف في التعامل مع الأشياء.

تاسعا: سجل القرآن الكريمة الحياة الاجتماعية للأمم والشعوب التي أبيدت أو مازالت آثارها باقية حتى نزول القرآن.

فقد ذكر القرآن قصص خمسة وعشرين نبيا، وأشار إلى ستة عشر منهم في موضع واحد، قال تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (الأنعام:83-86). وقد ذكرت قصصهم بالتفصيل، من ذلك ذكر الله تعالى قصة نوح مع قومه، قال تعالى: (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) (الذريات:46). وقصة إبراهيم وبناء الكعبة، قال تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة:127). وقصة لوط مع قومه، قال تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) (لأعراف:80). وكذلك قصة شعيب، قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (لأعراف:85). وذكر عادا ونبيهم هودا عليه السلام، قال تعالى: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ) (لأعراف:65). وذكر مدينتهم الفخمة المتميزة إرم، قال تعالى: (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) (الفجر:7)

وقال تعالى يذكر معاناة بني إسرائيل مع فرعون: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة:49). وقال تعالى يذكر طغيان أحد المترفين من بني إسرائيل: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص:76). وذكر الله تعالى قصة هاروت وماروت ببابل، قال تعالى: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (البقرة:102). وذكر قصة عيسى ورفعه إلى السماء، قال تعالى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً) (النساء:157). وقل أن تجد من خصائص الأنبياء أمرا ذا بال لم يذكره القرآن، و لم يحتفل له، ومع هذا فهنالك من الأنبياء والرسل من لم يذكرهم القرآن، فالقرآن كتاب هداية أولا وأخيرا وليس كتاب تاريخ، وهو يستخدم من القصص ما يخدم غرضه في تحقيق الهداية للناس، قال تعالى: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) (النساء:164). والقرآن لا يهتم بالتفاصيل المملة، ولا التواريخ الميتة، وإنما يهتم بروح الحدث، وهذا ما ينفع الناس، وهو جوهر التاريخ ولبابه.

وخلاصة القول هنا: إن مراعاة البعد المكاني، والتحامه مع البعد الزماني في وحدة عضوية يؤازرها وحدة الحدث يجعل الكون بما فيه من أحداث وأمكنة وأزمنة مختلفة وكأنه خشبة مسرح أمام القارئ المتأمل لكتاب الله، فهو يقرأ قصة البشرية بما فيها من مأساة وملهاة، وخير وشر، من عهد آدم إلى قيام الساعة، ومن شرق الأرض إلى غربها، في وحدة واحدة وكأنها ماثلة أمام ناظريه، وهذا بحد ذاته أعظم الأدلة على ديناميكية القرآن، وأنه كتاب حياة، فهو يجعل التاريخ الماضي حيا، والمستقبل المجهول شاخصا، ويبدع الحياة ويهذبها ويوجهها ويجددها ويبعثها، كتاب فيه شيء عن كل شيء وفيه كل شيء عن أشياء كثيرة، وهذا مما يؤكد صلاحية هذا القرآن لكل زمان ومكان وإنسان، فهو بحق كتاب الهداية المطلق، وصدق الله تعالى إذ يقول: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)(الإسراء: من الآية9).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث السابع:

ديناميكية التشريع الإسلامي.

التشريع الإسلامي هو تشريع متدرج يلائم النفس الإنسانية من جهة، ويلائم المنهج التربوي من جهة أخرى، وهو المنهج الذي يأخذ الناس بالقدوة والترغيب والترهيب إلى الصراط المستقيم.

ومن خصائص التشريع الإسلامي أنه يوافق الحياة، ويهذبها، ويندمج بها وينميها، لأن الشريعة في أصل الوضع اللغوي مأخوذة من الشرع، وهو نهج الطريق الواضح، قال بعضهم: (سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء، من حيث إن من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة رَوي وتطهر)[115]، قال تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الجاثية:18).

ومن خصائص التشريع الإسلامي أنه يمنع الجريمة، أو يحد من انتشارها بما شرعه من وسائل التربية التي تحد من الجريمة وتربي النفوس على التقوى والفضيلة، وتبصرها بأضرار الرذيلة، كما وضع العقوبات الرادعة للجرائم الكبرى لكي يرتدع الناس عن ارتكابها، وراعى الستر ودرء الشبهات.

والتشريع الإسلامي يصلح لكل زمان ومكان، فهو يترفع عن الإقليمية والبيئة المحدودة، ويرتفع عن العلم المحدود والجهل والنسيان الذي يعتري المشرعين من البشر، وذلك لأنه رباني المصدر، وقد شرعه الله تعالى موافقا لكل البيئات والنفوس والأزمنة، قال تعالى: (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:14).

والتشريع الإسلامي وحده هو القادر على أن يلبي حاجات الجسد والروح، والنفس والمجتمع، لتقوم به الحضارة الراشدة التي توازن بين الدنيا والآخرة، والروح والجسد، وحاجات الفرد والجماعة، والقيم والإنتاج، لتقوم به الحضارة الراشدة التي يسعد من انتمى إليها لأنه ينتمي إلى خير الأمم، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران:110).

ولما يتمتع به التشريع الإسلامي من حيوية وخصائص تجعله مرنا متحركا متوازنا منسجما مع

---

[115] – المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مادة (شرع)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حاجات البشرية وتطلعاتها، فقد ظل الدين باقيا أبد الدهر، لأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض، وقد رأيت أن أتتبع بعض العوامل الحيوية في التشريع الإسلامي في هذا المبحث ضمن نقاط محددة.

أولا: الناسخ والمنسوخ

من حكمة الله تعالى أن يقع الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، قال تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:106). ويأتي عادة المنسوخ ثم الناسخ، فقد (قال بعضهم: ليس في القرآن ناسخ إلا والمنسوخ قبله في الترتيب، إلا آيتين: آية العدة في البقرة [234]، وقوله: (لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء)(الأحزاب: من الآية52) كما تقدم)[116].

والناسخ والمنسوخ تقتضيه حكمة التدرج في التشريع، وهو يدل على مرونة الشريعة، ويدل على حيويتها وقدرتها على التكيف مع سائر الظروف والمجتمعات، البدوية منها والحضرية، والعربية وغيرها، كما أنه وجه من وجوه إعجاز القرآن، قال السيوطي في تعداده لوجوه إعجاز القرآن: (الوجه الثامن من وجوه إعجازه: وقوع ناسخه ومنسوخه، وهو ما خصت به هذه الأمة لحكم، منها التيسير، وقد أجمع المسلمون على جوازه، وأنكره اليهود ظنا منهم أنه بداء كالذي يرى الرأي ثم يبدو له أنه باطل، لأنه بيان مدة الحكم، كالإحياء بعد الإماتة وعكسه، والمرض بعد الصحة وعكسه، والفقر بعد الغنى وعكسه، وذلك لا يكون بداء، فكذا الأمر والنهي)[117]، ثم تحدث رحمه الله عن حكمة بقاء الناسخ، يقول: (فإن قلت ما الحكمة في رفع الحكم وإبقاء التلاوة فالجواب من وجهين: أحدهما أن الفرقان كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به، فيتلى لكونه كتاب الله، فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة. والثاني: أن النسخ غالبا يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرا للرحمة ورفع المشقة)[118].

وسنذكر هنا إحدى الآيات التي قيل بأنها نسخت كثيرا من الآيات، وهي آية السيف، فقد (قال ابن العربي: كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار والتولي والإعراض والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)(التوبة:

---

[116] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه أحمد شمس الدين (92/1).

[117] – المصدر السابق، (83/1).

[118] – المصدر السابق، (91/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من الآية5) الآية، نسخت مئة وأربعا وعشرين آية، ثم نسخ آخرها أولها)[119]. ولكن هذا الرأي لم يرجحه بعضهم كما ذكر السيوطي، فكان قد قال في مستهل حديثه عن النسخ: (وقالوا: إنما حق الناسخ والمنسوخ أن تكون آية نسخت آية... إذا علمت ذلك فقد خرج من الآيات التي أوردها المكثرون من الجم الغفير مع آيات الصلح والعفو، إن قلنا إن آية السيف لم تنسخها، وبقي ما يصلح لذلك عدد يسير)[120].

وممن رفض القول بأن آية السيف نسخت آيات العفو والسلم الحافظ ابن كثير، حيث قال عند تفسير قوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (لأنفال:61): (وإن جنحوا: أي مالوا، للسلم: أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، فاجنح لها: أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر، وقال عبد الله بن الإمام أحمد، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثني فضيل بن سليمان يعني النميري، حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إنه سيكون اختلاف، أو أمر، فإن استطعت أن يكون السلم فافعل}. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله، وقال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)(التوبة: من الآية29). وفيه نظر أيضا، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفا، فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم)[121].

وكلام ابن كثير في غاية الأهمية، وهو ما يتلاءم مع عصرنا، فليس بوسع المسلمين في هذا العصر مقاتلة المشركين، بل لا بد من مهادنتهم الآن على أقل تقدير بسبب الضعف الحضاري الذي أصاب أمة الإسلام، وهو ما لحظه ومن الكتاب المعاصرين الأستاذ المفكر الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، يقول وفقه إلى كل خير: (ويلاحظ الدارس المسلم اليوم، أن مفهوم النسخ بوضعه

---

[119] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين (92/1).

[120] – المصدر السابق، (88/1).

[121] – تفسير القرآن العظيم، (356/2-357). دار الخير، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التقليدي، قد تعرض لعدد من مبادئ أساسية في الوحي والرسالة بالإلغاء، وقصر مجالات الرسالة وأبعادها على آخر ما نزل من النصوص، وما اقتضته ممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم وحاجة المسلمين على العهد المدني الثاني، ومن أمثلة الآثار السلبية للنسخ بهذا المفهوم: قضية العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاهيم في الدعوة والعلاقات الدولية الحضارية، وكذلك قضية علاقة المرحلة المدنية بالمرحلة المكية، وما يمكن أن ينشأ بينهما من علاقة التناسخ، وأثر ذلك على عمل الدعوة الإسلامية والتشريع الإسلامي، واستراتيجيات العمل السياسي في هذا العصر. ففي مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، نجد أن آية السيف: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)(التوبة: من الآية5)، تمثل نموذجا واضحا للآثار السلبية للسائد في منهج النسخ التقليدي، فآية السيف نزلت في نهاية العهد المدني الثاني، والمسلمون يتمتعون بالقوة والغلبة، وذلك في مواجهة مشركي العرب، الذين بالغوا في عداء المسلمين، والاعتداء عليهم ونقض عهودهم، رغم انقضاء ما يزيد على عشرين عاما من الدعوة والمسالمة والبر والصبر من المسلمين ودولتهم، فأمر القرآن الكريم بقتال المشركين القساة الكواسر، الذين مازالوا يعيشون بدائية اجتماعية وحضارية، وأخذهم بالقوة والعنف والإذلال، حتى يخضعوا للإسلام ويدخلوا في مجتمع حضاري منظم، فيصلح حالهم وتهذب نفوسهم، وينتهوا عن عدوانهم، ويكفوا أذاهم وقسوتهم وعدوانيتهم الناجمة عن بدائية تكوينهم الاجتماعي عن أنفسهم وعن الإسلام والمسلمين، وهنا نجد مفهوم النسخ في المنهجية التقليدية لا يستخلص الدلالة التنظيرية المطلوبة من مجالها الذي تعلقت به، وهو: الإصلاح والتهذيب، وأخذ الظالم المعتدي بالقوة الرادعة، ولكنه ينتهي إلى مجالات الدعوة كافة، وعلاقات التعامل والحوار مع غير المسلمين جميعا في كل الأحوال... وهذه القضية وما انتهت إليه من نتائج عديدة، تعرضت لمختلف جوانبها بقدر وافر من التفصيل في كتابي: [نظرية الإسلام في العلاقات الدولية: توجهات جديدة في الفكر والمنهجية الإسلامية]، وانتهيت إلى أن مجرد تعارض الأحكام والنصوص الظاهرة لا يعني بالضرورة ولا في الغالب النسخ والإلغاء، ولكن يعني أن الحياة الإنسانية في أوضاعها المختلفة تحتاج إلى مواقف وأحكام مختلفة، وكلما تحققت العلاقات والشروط والظروف الموضوعية لحكم أو توجيه بعينه، كان الحكم والتوجيه المعني هو الحكم والتوجيه الملزم للمسلم)[122].

---

[122] – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص (88-90). الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، 1412هـ/1992م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثانيا: المجمل والمبين

تقتضي حكمة التشريع ومرونته وحيويته أن يأتي على صور متعددة، منها ما هو مجمل ومنها ما هو مبين لذلك المجمل، مما يتيح للعقل مزيدا من البحث والتأمل في كتاب الله، ويساعده على التفكر والتأمل والدقة في استخراج الأحكام الشرعية، والمجمل والمبين هو وجه من وجوه الإعجاز، قال السيوطي في تعداده لوجوه إعجاز القرآن: (الوجه الخامس عشر من وجوه إعجازه: ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة، وفي ذلك من حسن البلاغة ما يعجز عنه أولو الفصاحة، لكن هل يجوز بقاؤه مجملا أم لا؟ أقوال. أصحها لا يبقى المكلف بالعمل به بخلاف غيره)[123].

وسبب جمال الإجمال والمبين أنه يدفع الفكر للبحث والتأمل عن معنى المجمل، وللإجمال أسباب:

(أحدها الاشتراك، نحو: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) (التكوير:17) فإنه موضوع لأقبل وأدبر، (ثَلاثَةَ قُرُوءٍ)(البقرة: من الآية228) فإن القرء موضوع للحيض والطهر. (أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ)(البقرة: من الآية237)يحتمل الزوج والولي، فإن كلا منهما بيده عقدة النكاح.

وثانيها: الحذف، نحو: (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ)(النساء: من الآية127)، يحتمل في وعن.

وثالثها: اختلاف مرجع الضمير، نحو: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه)(فاطر: من الآية10). يحتمل عود ضمير الفاعل في يرفعه إلى ما عاد إليه ضمير إليه، وهو الله، ويحتمل عوده على العمل، والمعنى إن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب. ويحتمل عوده إلى الكلم الطيب، أي إن الكلم الطيب ــ وهو التوحيد ــ يرفع العمل الصالح، لأنه لا يصح العمل إلا مع الإيمان.

ورابعها: احتمال العطف والاستئناف، نحو: (إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ)(آل عمران: من الآية7)

وخامسها: غرابة اللفظ، نحو: (فَلا تَعْضُلُوهُن)(البقرة: من الآية232).

وسادسها: عدم كثرة الاستعمال، نحو: (يُلْقُونَ السَّمْعَ)(الشعراء: من الآية223)أي يسمعون. (ثَانِيَ عِطْفِهِ)(الحج: من الآية9)أي متكبرا، (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ)(الكهف: من الآية42)أي نادما.

---

[123] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين (168/1).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وسابعها: التقديم والتأخير، نحو: (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمّىً) (طه:129). أي: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاما. (يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا)(لأعراف: من الآية187)أي ويسألونك عنها كأنك حفي.

وثامنها: قلب المنقول: نحو: (وَطُورِ سِينِينَ)(التين:2) أي: سيناء. (عَلَى إِلْ يَاسِينَ)(الصافات: من الآية130)أي إلياس.

وتاسعها: التكرير القاطع لوصل الكلام في الظاهر، نحو (لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ)(لأعراف: من الآية75).

وقد يقع التبيين متصلا، نحو: (مِنَ الْفَجْرِ)(البقرة: من الآية187) بعد قوله: (الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَد)(البقرة: من الآية187). ومنفصلا في آية أخرى، نحو: (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)(البقرة: من الآية230) بعد قوله: (الطَّلاقُ مَرَّتَانِ)(البقرة: من الآية229)، فإنها بينت أن المراد به الطلاق الذي تملك الرجعة بعده، ولولاهما لكان منحصرا في الطلقتين)[124].

وقد كان الإجمال والتبيين سببا لاجتهاد العلماء، واختلافهم في بعض الآيات هل هي من المجمل أم لا، وفي ذلك سعة على الناس ومرونة في التشريع.

ثالثا: المنطوق والمفهوم

من سعة العربية وجمالها أنك تستنتج من النص أحكاما كثيرة، فللفظ دلالته، ولما يفهم من النص دلالته أيضا، وقد استفاد القرآن من هذه الخاصية في تشريعاته، ووظفها خير توظيف، وهي وجه من وجوه الإعجاز، قال السيوطي في تعداده لوجوه إعجاز القرآن: (الوجه السادس عشر من وجوه إعجازه: الاستدلال بمنطوقه أو مفهومه، وهو ما دل عليه اللفظ في محل النطق، فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره فالنص، نحو: (فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)(البقرة: من الآية196) وقد نقل عن قوم من المتكلمين أنهم قالوا بندور النص جدا في الكتاب والسنة. وقد بالغ إمام الحرمين وغيره في الرد عليهم، قال: لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على قطع، مع انحسام جهات التأويل والاحتمال، وهذا وإن عز حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللغة، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية. انتهى)[125].

---

[124] – المصدر السابق، (1/163-165).

[125] – معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين (1/169).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويضيف السيوطي شارحا معنى المفهوم: (والمفهوم ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق، وهو قسمان: مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة.

فالأول: ما يوافق حكمه المنطوق، فإن كان أولى سمي فحوى الخطاب، كدلالة: (فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُف) (الإسراء: من الآية23)على تحريم الضرب لأنه أشد. وإن كان مساويا سمي لحن الخطاب، أي معناه، كدلالة: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً)(النساء: من الآية10)على تحريم الإحراق، لأنه مساو للأكل في الإتلاف، واختلف هل دلالة ذلك قياسية أو لفظية، مجازية أو حقيقية، على أقوال بيناها في كتبنا الأصولية.

والثاني: ما يخالف حكمه المنطوق، وهو أنواع: مفهوم صفة، نعتا كان أو حالا أو ظرفا أو عددا، نحو: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)(الحجرات: من الآية6) مفهومه أن غير الفاسق لا يجب التبين في خبره، فيجب قبول خبر الواحد العدل. (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ)(البقرة: من الآية187) (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ)(البقرة: من الآية197) أي فلا يصح الإحرام به في غيرها. (فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ)(البقرة: من الآية198) أي فالذكر عند غيره ليس محصلا للمطلوب. (فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)(النور: من الآية4)أي لا أقل ولا أكثر.

وشرط نحو: (وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِن)(الطلاق: من الآية6)أي فغير أولات الحمل لا يجب الإنفاق عليهن.

وغاية نحو: (فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)(البقرة: من الآية230)أي فإذا نكحته تحل للأول بشرطه.

وحصر نحو: (لا إله إلا الله)، (أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِد)(الكهف: من الآية110) (أي فغيره ليس بإله، (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِي)(الشورى: من الآية9)أي فغيره ليس بولي، (لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)(آل عمران: من الآية158)أي لا إلى غيره، (إِيَّاكَ نَعْبُد)(الفاتحة: من الآية5)أي لا غيرك).[126]

ويلاحظ هنا أن المفهوم والمنطوق باب واسع من أبواب الاجتهاد للفقهاء والعلماء، وهو أحد روافد الطاقة والحيوية في التشريع الإسلامي.

رابعا: العام والخاص:

العام والخاص أحد مزايا التشريع الإسلامي، فقد تكون هنالك حادثة خاصة ولكن تأتي بلفظ عام، إذ ليسيت العبرة بالحادثة بحد ذاتها، وإنما هي بكونها نموذجا لحوادث متكررة مثلها

---

[126] - المصدر السابق، (1/170-171).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في عصر النبوة أو ما يليه من عصور، ومن ثم أتاحت هذا الظاهرة للشريعة أن تستوعب من خلال الأحداث التيي جرت في عهد النبوة جميع الأحداث التي تشابهها أو تحاكيها على كافة الأصعدة الدينية والاجتماعية والخلقية إلى قيام الساعة، وهذا من حيوية التشريع وديناميكة القرآن، والعام في الاصطلاح: (لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر)[127]، وصيغه:

1- كل مبتدأة أو تابعة نحو، (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) (الرحمن:26). (فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) (الحجر:30)

2- الذي والتي وتثنيتهما وجمعهما (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا)(الاحقاف: من الآية17) فإن المراد به كل من صدر منه هذا القول بدليل قوله بعد: (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)(الاحقاف: من الآية18). (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) (البقرة: من الآية82)

3- وأي وما ومن شرطا واستفهاما وموصولا، نحو: (أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)(الإسراء: من الآية110). (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)(الأنبياء: من الآية98)، (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)(النساء: من الآية123).

4- الجمع المضاف، نحو: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ)(النساء: من الآية11) والمعرف بأل: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ)(البقرة: من الآية275)

5- اسم الجنس المضاف (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ)(النور: من الآية63) أي كل أمر الله، والمعرف بأل: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ)(البقرة: من الآية275). أي كل بيع.

6- النكرة في سياق النفي: (فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)(الإسراء: من الآية23). (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)(الحجر: من الآية21) وفي سياق الشرط: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ)(التوبة: من الآية6). وفي سياق الامتنان: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً)(الفرقان: من الآية48) [128]

ويأتي العام على ثلاثة أقسام:

الأول: الباقي على عمومه، وهو كثير في غير آيات الأحكام الفرعية، مثل: (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(البقرة: من الآية282)، (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا)(يونس: من الآية44). (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)(الكهف: من الآية49). وقليل في آيات الأحكام الفرعية كما ذكر

---

[127] – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (21/2).

[128] – انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (21/2).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السيوطي، وقال القاضي جلال الدين البلقيني: ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص. فقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم)(النساء: من الآية1) قد يخص منه غير المكلف، و(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)(المائدة: من الآية3) خص منه حالة الاضطرار ومنه السمك والجراد.

الثاني: العام والمراد به الخصوص: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) (آل عمران: من الآية173) والقائل واحد، نعيم بن مسعود الأشجعي، أو أعرابي من خزاعة. (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)(النساء: من الآية54) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم لجمعه ما في الناس من خصال حميدة.

الثالث: العام المخصوص، وأمثلته كثيرة جدا، إذ ما من عام إلا وقد خص، ثم المخصص له إما متصل وإما منفصل، فالمتصل خمسة وقعت في القرآن: أحدها الاستثناء، نحو: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور:4-5). الثاني: الوصف نحو: (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)(النساء: من الآية23). الثالث: الشرط نحو: (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً)(النور: من الآية33). والرابع الغاية نحو: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (التوبة:29) والخامس: بدل البعض من الكل، نحو: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)(آل عمران: من الآية97).

والمنفصل: آية أخرى في محل آخر أو حديث أو إجماع أو قياس. فمن أمثلة ما خص بالقرآن قوله تعالى: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ)(البقرة: من الآية228) خص بقوله: (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا) (الأحزاب: من الآية49) وبقوله: (وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)(الطلاق: من الآية4). ومن أمثلة ما خص بالحديث، قوله تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ)(البقرة: من الآية275) خص منه البيوع الفاسدة وهي كثيرة بالسنة. ومن أمثلة ما خص بالإجماع آية المواريث خص منها الرقيق فلا يرث بالإجماع، ذكره مكي. ومن أمثلة ما خص بالقياس آية الزنا (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)(النور: من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الآية2) خص منها العبد بالقياس على الأمة المنصوصة في قوله: (فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ)(النساء: من الآية25) المخصص لعموم الآية ذكره مكي أيضا.[129]

والعام والخاص يعطي مساحة كبيرة للعقل من أجل تدبر القرآن، وفقهه على الوجه المثل، وهو أحد العوامل التي ترفد التشريع الإسلامي بالطاقة والحركة ومقومات الاجتهاد والخلود، حتى ليتسع فضائه للحوادث إلى قيام الساعة كاتساعه للحوادث يوم نزوله على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

والخلاصة هي أن التشريع الإسلامي له سماته الفريدة، وخصائصه الفعالة، وهو يملك من مقومات الحركة والمرونة ما يجعله صالحا لكل زمان ومكان، فهو حياة للحياة، أو روح للأرواح، فهو قائم متجدد لا يهدأ إلى قيام الساعة، له في كل أمة وفي كل جيل صولات تعطي للحياة دفئها وبركتها ونموها ونشاطها.

---

[129] – انظر: المصدر السابق، (2/21-23).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخاتمـــــــــــــة:

تكون هذا البحث الموسوم بديناميكية القرآن وجه من وجوه إعجازه من مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة.

في المقدمة، تحدثت عن أهمية الموضوع، وأنه وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

وفي المبحث الأول: ديناميكية البناء اللغوي، تتبعت الأساليب البلاغية التي تثير الانتباه وتحرك ذهن الإنسان، مثل: التشبيه والاستعارة، والاستفهام والاستثناء والنداء، وقد تتبعت ذلـــك في أربعة وأربعين أسلوبا من أساليب العربية.

وفي المبحث الثاني: ديناميكية الأداء الصوتي، وهو تنقله بين مقاطع مختلفة وأساليب متعددة من الأداء الصوتي، وتتبعت ذلك من خلال ثمانية موضوعات شملت الجناس وملحقاته والفواصـــل وتقسيماتها، ولزوم ما لا يلزم والإعلال والإبدال والإدغام.

وفي المبحث الثالث: ديناميكية البعد النفسي الداخلي، ونعني بها حركـــة القـــرآن في كيـــان الإنسان، وبينت أسباب ذلك وحللت سبعة أمثلة نماذج توضح الفكرة.

وفي المبحث الرابع: ديناميكية البعد الزماني، تناولت أحد عشر موضوعا، شملت: ما جاء ذكره من مفردات الزمان، وتحديد أوقات العبادات، وما جاء ذكره مصحوبا بالعدد، ودقة الوقـــت كما عبر عنها القرآن، وخصوصية بعض الأوقات، وما ورد بذكر اليوم الآخر، والتعبير بالماضي عن المستقبل، والتعبير عن المستقبل باسمي الفاعل والمفعول، والإخبار عن القـــرون الماضـــية، الإخبار عن المستقبل، ديناميكية الزمان.

وفي المبحث الخامس: ديناميكية البعد المكاني والحركة الكونية، تناولت الحديث عـــن ثمانيـــة موضوعات شملت: ما جاء ذكره من الأجرام العلوية، والمذكور من البلاد والبقاع والأمكنـــة والجبال، وما تكرر ذكره من الأماكن، وما نسب في القرآن إلى الأماكن، و ما أقسم الله به من الأماكن، وما ورد فيه من أسماء الأماكن الأخروية، واستيعاب القرآن للبعد المكاني، وحركـــة المكان والزمان

وفي المبحث السادس: ديناميكية الحدث والحركة الاجتماعية، تناولت تسعة موضوعات شملت: سجل القرآن الكريم مواقف من الحياة الخاصة للنبي عليه الصلاة والسلام، ورصـــده أحـــداث الصراع بين النبي عليه السلام وكفار مكة، ورسم القرآن الكريم بناء دولة المدينة وما رافقه من أحداث، وسجله الحوار التعليمي بين الرسول وأصحابه، وسجله الحوار الدعوي بين الرسول والمشركين وبينه وبين أهل الكتاب، وسجله جوانب من الحياة الخاصة لبعض المؤمنين، و سجله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحياة الاجتماعية للمجتمع المسلم، وسجل الحياة الثقافية والعقدية والاجتماعية لكفار مكة والمدينة، وسجله الحياة الاجتماعية للأمم والشعوب التي أبيدت أو بقيت حتى نزول القرآن.

وفي المبحث السابع: ديناميكية التشريع الإسلامي، ذكرت أنه تشريع متدرج يلائم النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني، وتحدثت عن ذلك من خلال أربعة موضوعات شملت: الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبين، والمنطوق والمفهوم، والعام والخاص:

ونحن نجزم أن هذه المستويات السبعة من الديناميكية القرآنية لم تجتمع لكتاب غير القرآن، وأن الأدباء والشعراء والبلغاء وجميع الناطقين والعقلاء في كل زمان ومكان هم غفل عن مجموعها، قد يحومون حول بعضها، وقد يدرسون شيئا منها، وقد يوجد أجزاء وتفاريق منها في كلامهم، ولكنها ليست موجودة جملة واحدة على وجه معجز إلا في القرآن الكريم، لذا فهم لا يستطيعون أن يلامسوا ديناميكية القرآن في شيء منها.

إنه لوجه جديد من وجوه الإعجاز لم يلتفت إليه أحد، اللهم إلا شذرات قد تجدها في تراث أهل العلم، وقد قمت بتجميع ما كتب العلماء الأجلة في البلاغة وعلوم القرآن، ثم حللته وجعلته ضمن وحدة موضوعية تبرز من خلالها خصيصة خالدة من خصائص أسلوب القرآن الكريم وهي الديناميكة، مما يعني أنه كتاب حي صالح لكل الدهور والأمكنة، باق إلى قيام الساعة، وليس هذا بسبب إلا لأنه من لدن حكيم خبير.

وندعو في نهاية هذا البحث إلى تشجيع الدراسات التي تتناول الحديث عن الإعجاز، وإلى التجديد فيها، ونوصي بإقامة مراكز بحوث علمية متخصصة لهذا الغرض العظيم، الذي به مناط إثبات النبوة إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المصادر والمراجع:

- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، مكتبة البابي الحلبي بمصر، الطبعة الرابعة، 1398هـ/ 1978م.
- – إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، 1412هـ/1992م.
- الأصوات اللغوية، للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1981م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403هـ/1983م..
- تاريخ آداب العرب، للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1394هـ/ 1974م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حفني شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1382هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الخير، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م.
- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي.
- جامع الدروس العربية، للغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثالثة والثلاثون، 1417هـ/ 1997م.
- شروح التلخيص (شرح السبكي) دار السرور، بيروت، (مصورة عن طبعة مصطفى البابي الحلبي).
- عجائب المخلوقات، للقزويني، دار الفكر، بيروت.
- فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق، نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/ 1980م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- الكشاف للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ/ 1986م.
- مشكاة المصابيح للتبريزي، بتحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، بيروت.
- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، 1402هـ/1981م.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للعباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت..
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، صححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، إستانبول، 1984م.
- المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، دار الفكر.
- المورد لمنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1988م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، إستانبول، 1984م.